بعثة الأغواط : شهر ماي و جوان 1844 ميلادية



الجنرال ماري مونج MAREY-MONGE

ترجمة : الأستاذ كزواي الحاج العرابي

EXPÉDITION

DE

LAGHOUAT,

Dirigée aux mois de Mai et Juin 1844,

PAR LE GÉNÉRAL MAREY,

COMMANDANT LA SUBDIVISION DE TITTERY.



ALGER.

—

IMPRIMERIE A. BOURGET, RUE SAINTE, 1.

مقدمة المترجم

ماري مونج MAREY-MONGE الابن الأصغر لعالم الرياضيات البارز كأسبار مونج، درس ماري في كلية العلوم التقنية، شارك في الدفاع عن العاصمة باريس سنة 1814 ميلادية، تقلد رتبة ملازم في الجيش الفرنسي سنة 1824 ميلادية، تقلد رتبة نقيب، شارك في بعثة علمية في الجزائر بعثة مدينة الأغواط، شارك في معركة سطوالي غرب العاصمة الجزائرية. يوم 19 جوان 1830 ميلادية شارك القائد الفرنسي بيرتازين Berthezène النصر، تحت القيادة السامية للقائد دو كايزين دو بومونت de Ghaisnes de Bourmont، حضي ماري برتبة مقدم سنة 1834 ميلادية، ثم تقلد رتبة عقيد في قوة السبايسية سنة 1837 ميلادية، ثم تقلد رتبة جنرال محافظة عسكرية سنة 1848 ميلادية في آخر سنة من حياته، حضي بمقعد في مجلس الشيوخ الفرنسي سنة 1863 ميلادية السنة التي توفي فيها.

مدينة الجزائر تنتصر على أربعة دول أوروبية مجتمعة هي اسبانيا، مالطا، إيطاليا، ألمانيا سنة 1541 ميلادية، هذا الانتصار غير تاريخ شمال إفريقيا، سبب الحرب أن ممالك أوروبا، قررت تنصير الشمال الافريقي، ضمن مشروع عام هو تنصير إفريقيا وآسيا واعادة التجربة الأمريكية الناجحة، مع إبادة وتنصير الهنود الحمر. الإمبراطورية الرومانية المقدسة قادمة لتحل بالجزائر، عدد المدافعين عن الجزائر 2600 جندي، عدد المهاجمين 36000 جندي، النسبة تسعة مقابل واحد، قائد الحملة شارل الاسباني، حقق النجاح في ابادة الهنود وتنصيرهم، وأراد أن يكرره في الشمال الافريقي. إلا أنه هُزم ولما رجع قافلا لوطنه من شده غيظه، رمى تاج عرشه في الماء، ذكر هذا الحدث العظيم المؤرخون ومنهم المؤرخ التركي ألماز أوزتونا، كتاب تاريخ الدولة العثمانية،1 ذكر حوادث الانتصار تحت عنوان انتصار الجزائر 1541 ميلادية.

---

[1] ألماز أوزتونا تاريخ الدولة العثمانية ترجمة عدنان محمود سلمان مراجعة وتنقيح الدكتور مُحَمَّد الأنصاري منشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا استانبول 1988 ميلادية.

العدد 25 شهر جانفي 1816 ميلادية، كاتب فرنسي اسمه A . Berbregger يكتب في المجلة الافريقية بحثا عنوانه، الجزائريون يطالبون ملكا فرنسيا سنة 1572 ميلادية.

قبل كتابة التاريخ المحلي لتأسيس نظرية كتابة التاريخ الكلي، نحتاج أن نؤرخ قبل ذلك للطوائف والملل التي تغلغلت في النسيج الاجتماعي للأمة، وفتكت به وأخص بالذكر طوائف الشيعة، وفرق الصوفية المنحرفة عن منهاج النبوة الملحقة بها.

الجيش الفرنسي سنة 1830 ميلادية بقضه وقضيضه لم يكن بإمكانه، أن يحوز شارع من شوارع العاصمة، و ليكن الحراش، لفهم هذه المعادلة نحتاج لنؤرخ للماسونية بمشاربها وطبقاتها، هذا الفعل لا يقوم به المؤرخون، يقوم به فلاسفة التاريخ.

فلسفة التاريخ لا تنظر للحدث، بل تنظر لدلالة الحدث، الفيلسوف المؤرخ لا يقف عند الأفراد هذا كم مهمل، بل يقف عند الحدث هو ثابت لا متغير، التاريخ يعيد نفسه، لما تجتمع أسبابه، لا فرق بين سقوط عاصمة الجزائر سنة 1830 ميلادية، وسقوط عاصمة العراق سنة 2003 ميلادية، ولا فرق بين اقتحام مدينة الأغواط، ومدينة الموصل من قبل جحافل الحشد الشيعي، الحدث نفسه يتكرر بتفاصيله.

لما تمسك بالفيروس وتعزله في المختبر، هذا عمل باهر من يأتي بعدك، يحلل ويستكشف ويبحث عن الدواء، ويطمح أن يركب المصل وينقذ الملايين من موت محقق. عمل عادي يندرج ضمن مجريات البحث، يقوم به الأستاذ والطالب في آن واحد، إن لم تقم به أنت يقوم به آخرون سيأتون بعدك، وهم مدركون لأهمية الحدث.

بعثة ماري مونج للأغواط سنة 1844 ميلادية هو فيروس تسلل لجسم مريض معتل منهك بالأمراض المزمنة، يحاول جهاز المناعة، ويستبسل في الدفاع، ويبتكر الأدوات والوسائط المساعدة. يتكيف مع المقتضيات، يهاجم يختبئ يتسلل يراهن يقامر، يفعل أي شيء ليبقي نفسه حيا، لأن انهيار جهاز المناعة، هو انهيار للجسم وفقدان للحياة.

التاريخ هو الساعة والجغرافية هي البوصلة في مثل هذا الحدث، ترك الأسباب فسوق وخروج عن الجادة، مآله الوقوع في التيه المكاني وكذلك التيه الزماني، يقول عز من قائل في محكم التنزيل: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ المائدة الآية: 24 25 26.

الأغواط الخميس: 7 رمضان 1441 هجرية / 30 أفريل 2020 ميلادية

معلومات حول الوثائق المرفقة بالتقرير

1. الخريطة قياسها 1 / 1000 للمناطق التي زرناها ومرت بها القافلة ونخص منطقة جبل السحاري والأغواط خطها النقيب دوماريكس Dumareix المساعد الأول في القيادة العسكرية الخط الخامس والثلاثون.
2. مخطط قصر عين ماضي، الأغواط، الحويطة، العسافية، تاجموت، قصر الحيران، زكار، الشارف خطها ورسمها، النقيب في هيئة الأركان دو بين Du Pin قائد أركان الفوج.
3. رسم عام للقصور نفذه الشخص نفسه,
4. رسم صورتان للمهارى الشخص نفسه[1].
5. البعثة وضعت معالم الطرق والمعالم الدالة على القصور ومراكز التوقف لتيسير الرحلة.
6. وضع مخطط لبرج وضعه النقيب في الهندسة العسكرية، النقيب موتال Motel المكلف بالشؤون العربية في طاقين والقائد الأعلى لبرج طاقين.
7. ترجمة تنبؤات الآية للحاج عيسى، التي كتبها قبل مائة وثلاثون سنة التي تتحدث عن قدوم فرنسا للجزائر، ودخول فرنسا للأغواط عن طريق واد الحمّار ترجمها النقيب موتال.
8. تقرير حول التاريخ الطبيعي للصحراء الصغيرة، والكبيرة للصحراء، كتبه النقيب راتو Ratau.
9. تقرير حول تاريخ تحصينات قصر عين ماضي، والبحث في وسائل الهجوم الفعالة التي تمكن من حيازة القصر، هذا التقرير وضعه النقيب أوباك Aubac هو قائد قوة المدفعية في قافلة البعثة[2].
10. تقرير حول طاقم الجمال، كتبه القائد كاربوسيا Carbuecia المكلف بطاقم الجمال.

---

[1] هذه ملاحق تقنية أدرجها ضمن التقرير وهو يحدد معالم الحرب القادمة، سيتكفل ببعضها التحالف الماسوني الصليبي..

[2] من أسباب احتلال الجزائر القضاء على دعوة السيد أحمد التجاني.

11. ملاحظة الحياة البيولوجية والجيولوجية للصحراء الصغيرة، وجبل السحاري[1] الملاحظات العلمية دونها الدكتور بودويل Bonduelle طبيب جراح ومساعد، لقيادة الأركان للفوج الثالث، لقوة المطاردة أورليان Orleans.
12. تقرير حول بعثة عين ماضي من قبل السيد المقدم دو سانت أرنولد de Saint-Arnaud هو من كتبه وأشرف عليه.[2]
13. راية الحاج العربي خليفة الأمير عبد القادر، الذي قتله خليفتنا أحمد بن سالم في قصر الحيران سنة 1834 ميلادية
14. تقرير حول المرتفعات من البحر وصولا لمدينة الأغواط.

[1] سمي جبل السحاري جبل المشتل لأن سحرة الفرعون المؤمن منهم والكافر، زمن نبي الله سيدنا موسى فروا إليه، وإلى يومنا هذا، لهم أحفاد يمارسون الدجل والشعوذة، ويدعون معرفة الغيب. راجع قبائل أولاد نايل تاريخ بني لقواط.
[2] نفس المهمة التعرف على قصر عين ماضي.

بعثة مدينة الأغواط

شهر مارس و أفريل من سنة 1844 ميلادية، الفوج المكلف بالبعثة الاستكشافية يتكون 1500 رجل، تجاوز الصحراء الصغيرة وولج جبل السحاري، ووصل قصر زكار يقع جنوب العاصمة الجزائرية بمسافة 492,459 كيلومتر1، ويبعد عن مدينة الأغواط بمسافة 120,701 كيلومتر، ويبعد عن الصحراء الكبرى بمسافة 72,4205 كيلومتر. هذه المناطق هي مؤثرة على أولاد نايل، وما يتبع الأغواط بشكل مباشر، نجد أن لأولاد نايل مناطق تخصهم، هم متواجدون ومقيمون فيها، هم انتظموا مع القوانين الفرنسية الجديدة الأمر نفسه نجده عند الأرباع الشراقة، الذين ذهبوا ناحية التل وإلى مناطق التيتري تحديدا. سنة 1848 ميلادية حضر ثلاث قياد، وأحضروا معهم جياد قادة2 والبرانيس ليعلنوا الطاعة لفرنسا، كما فعل أولاد نايل، الأمر نفسه وقع مع الأغواط والقصور التابعة لها، هم بعثوا وكلاء عنهم للسلطة الفرنسية، وأرسلوا الجياد اعلانا منهم عن قبول الطاعة والحكم العسكري الفرنسي. قدم يحيى بن سالم3 رجل له مكانة ونفوذ عند قومه، هو أخ خليفة الأغواط أحمد بن سالم، وحتى يقبل الطاعة والولاء لفرنسا اشترط شرطا قاسيا وهو أن يكون أحمد بن سالم، خليفة على الأغواط والقصور الخمسة4 المجاورة، وأن تخضع لسلطته قبائل الأرباع5 والحرازلية، واشترط كذلك أن تكون قصور بني ميزاب خاضعة لسلطته، لما سمعت مقالة يحيى بن سالم، علمت قيمة وأهمية هذا الكلام، ولأنني لا أمتلك صلاحية أخذ القرار، طلبت من يحيى بن سالم، الذهاب إلى العاصمة، وحملته تقريرا يأخذه معه. السيد الحاكم العام في العاصمة قبل الاقتراح، وطلب مني التوجه

---

[1] قيس المسافة عند الكتبة الفرنسيين قيس قديم يعبر عنه بقطع المسافة باليوم هناك تطبيق يحول هذا القيس إلى الكيلومتر وأنا أعتمده وظهر لي أنه مناسب ويعبر عن المسافات بقيم قريبة من الدقة.

[2] جياد قادة من أنفس الخيول وأغلاها هي هدايا لا تقدر بثمن من العرف أنها تقدم في المواقف والمحافل العظيمة.

3 هو يحيى بن معمر أخ أحمد بن سالم سلطان الأغواط.

4 القصور الخمسة هي : العسافية، تاجموت، عين ماضي، قصر الحيران، قصر الحويطة سيذكرها الكاتب.

[5] فرق الأرباع : المعامرة، والحجاج، وأولاد صالح، وأولاد زيد.

والتعرف على الأغواط ومناطقها، هي بالنسبة لنا عالما جديدا لا نعرفه، هذا الأمر بالتوجه هو ما كنا نبتغيه من بعثتنا هذه، وما نرجوه، وكان لي الشرف أن أتولى هذه المهمة، وأكتب حولها تقريرا كاملا مفصلا.

يوم 12 أفريل تلقيت الأمر بالتحضير والاستعداد للقيام بالبعثة، كان علينا التنقل مسافة 1569,708 كيلومتر باتجاه جنوب الجزائر، وبالتحديد تبعد عن المدية بمسافة 463,491 كيلومتر وتبعد عن بوغار بمسافة 386,243 كيلومتر، نحن الآن نقف على أرض هي تحت سيطرتنا، تبعد عن طاقين بمسافة 241,402 كيلومتر. حتى نخرج من بوغار، احتجنا المؤن التي تكفينا 40 يوما في مكاننا هذا الذي نتواجد فيه الآن، قررنا أن نجعله محطة نخزن فيها بعض المؤن نحتاجها أثناء العودة، ونبقي من عجز من رجالنا عن انهاء مهمته، حتى نخفف ونقلل من المصاعب، ونوفر التواصل وتكون المصاريف أقل. تم تحويل الفرق العسكرية العاملة في بوفاريك والبليدة، تم تحويلها إلى المدية، نَقْل وحمل المؤن اعتمدنا على البغال، التي تمت حيازتها وتأميمها من مناطق البليدة والمدية، وتم نقلها إلى بوغار، سيتم الاستغناء عن البغال ونعوضها بالجمال، هي كذلك أممناها وحُزناها بالقوة من الأهالي ولحمايتنا وحراستنا، جاءنا العون من فرسان القبائل، كلفوا بحراستنا وتأمين الطريق من بوغار حتى طاقين، لذلك لم أحتج للقوات النظامية. أخذت 140 من قوة المطاردة التابعة لقوة السبايسية و 400 من الفرسان العرب، أردت ذلك حتى أجعل تعداد القافلة قليل، لأن كثرة العدد تعني تعدد المشاكل وتعقدها، نحن لا نحتاج لكثرة عدد، لأننا لا نبتغي الذهاب ناحية القبائل، ما نريده فقط هو زيارة القصور الاستغناء عن البغال، وتعويضها بالجمال لا مناص منه، البغل يحتاج يوميا من الطعام 3 كيلوغرام في 40 يوما يحتاج 120 كيلوغرام، وهذا لا طاقة لنا به ما أعاق التحضير والرحلة هو هطل المطر الغزير، هو لم يتوقف بقي هكذا، حتى وصلنا مدينة الأغواط حالة الطقس المتقلبة هي هكذا من نهر كسال، الذي لا يبعد إلا خطوات عن بوغار، نعم حالة الطقس وتقلب المناخ أمر مزعج أزعجنا، كنا لا نعرف هل نحن في شتاء أم صيف في اليوم الواحد، ترى الفصول مجتمعة، ما يفرح

---

[1] يقدر الكاتب المسافات كما يفعل القدماء مسيرة، يوم وهذا التقدير له ما يقابله بالكيلومتر انا أدرج التقدير بالكيلومتر لأنه الأقرب للصحة.

ويرفع الانزعاج، هو أن ترى هذه الخضرة الجميلة تكسو الأنحاء. أبهرني أمرا لم أره من قبل، تبرد وتشعر بالبرد الشديد زمن قليل كلمح بالبصر، يغزوك الحر يملأ جوارك، تنظر أمامك ولا تصدق هل أنت في شتاء بارد، أم صيف حار.

الفرق كانت جاهزة للتحرك، يوم 27 أفريل تحركت من المدية، يوم أول ماي توقفنا والسبب أن وادي الشلف ارتفع منسوبه، وأضحى تجاوزه مستحيلا، وبقي الحال هكذا حتى يوم 3 ماي، أين سقطت أمطارا طوفانيه، هذا دفعنا لتعهد المؤن حتى نمنع تلفها إلا أن الأمطار أتلفت قسما كبيرا منها، مما دفعنا لتجديدها. تعجلت أمري وأحضرت من المدية 20000 حصة من أرز الخبز، يوم 10 استطاعت الجمال أن تتجاوز وادي الشلف، أكملنا مسارنا وسيرنا وصلنا يوم 14 إلى طاقين.

مكاني هذا الذي أنا متواجد فيه هو قصر طاقين، بُني منذ 30 سنة على مرتفع رطب الآن هو مهجور هجره الأهالي لأسباب صحية، احتجنا يومين كاملين لتهيئته وتحصينه جهزنا أربعة محميات، بنيناها بالصخر الجاف، وأدخلنا في مواد البناء أكياس الشعير وأقفاص البسكويت، تكفلت مجموعة بتهيئة بئر محفور في الأسفل. تركت كمية كبيرة من حطب المواقد، وفرت 150 حاوية للمياه، زودت نفسي بما أحتاجه من ذخائر، وفرت كذلك عربة اسعاف في المجموع نحن 150 رجلا، هؤلاء هم تحت قيادة النقيب في الهندسة موتال Motel. قبائل رحمان وأولاد الشايب والبو عيش، هؤلاء دواويرهم منتشرة في كل مكان، تركنا الخيول والجمال المريضة عند قبيلة البو عيش، تركنا 250 جمل لعدم جدواها وفائدتها، بداية من وصولنا طاقين، ومع ذلك لم نفصل العاملين من أولاد نايل، الذي سخروا لمرافقة هذه الجمال المبعدة.

يوم 17 تركنا طاقين، القافلة مجموع من كان فيها 2800 رجل و 1700 حيوان مسخر للمهمة، القافلة العسكرية تتشكل وفق هذا التقويم: 1700 مقاتل مشاة، 140 فارس نظامي، قطعتان مدفعية الجبال كل قطعة معها 80 مقذوف، 30 جندي مدفعية مع بنادق حماية، طاقم الجمال وكل ما يتبع بالمجمل نحن نتكلم عن 2100 رجل مسلح، أضف إلى ذلك 400 فارس من فرسان القومية 300 عربي مكلف بمهام، مع وجود 1400 من الغنم. نحمل من المؤن ما يكفينا 21 يوما كاملا، هذه تحملها

الجمال، 6 منها وضعت في الأكياس، معي 72000 من خراطيش الاحتياط، كل 60 خرطوشة موضوعة في جعبة تركت في قصر طاقين، هي مؤونة تكفي 8 أيام.

يوم 18 دخلنا جبل العمور ولم نتركه، إلا يوم 21 بعده، وصلنا قصر تاجموت، وجدت الخليفة[1] مجتمعا مع كبراء القوم، الخليفة التجاني لم يحضر الاجتماع، إلا أنه أرسل كبراء عين ماضي ليحضروا، أرسل معهم جوادا ورسالة، يظهر فيها الطاعة للحكم الفرنسي. قبل دخولي الاجتماع نشرت القافلة في الهضاب المحيطة، حتى يتسنى للأهالي رؤيتها ويعلمون من نحن، وبالتالي نكسب الثقة والاعتراف من كان معنا في القافلة، ما شاهد جمال القصر والنخل المنتشر والحدائق المنبسطة، حتى شعر بالفرح والسعادة، وتجاوب مع جمال الطبيعة.

يوم 22 وأثناء الاقامة بالقصر، أرسلت المقدم سانت أرنولد Saint-Arnaud مع 12 من الضباط من قوة المطاردة، مع 200 فارس من قوة القومية، ذهب معهم الخليفة وكبراء قبيلة الأرباع لزيارة القصر، الغرض من الزيارة هو فحص القصر ورفع مخططاته الهندسية، وليعلم الخليفة التجاني أنه الآن تحت الأوامر العليا للقيادة الفرنسية. تمت الزيارة بكل أريحية، وكان الاستقبال في مستوى الحدث، وتم الرجوع في اليوم نفسه المقدم دخل القصر وتصرف تصرف السيد المالك، وتعامل معه الأهالي كذلك، ومع ذلك أظهر للأهالي الشفقة، وأنه وان كان عسكريا فهو مسالم، هكذا انتهت هذه المهمة المعقدة والأساسية. قام الضباط الأكفاء برسم مخططات القصر، وعلى الفور وضعوا خطة افتراضية للهجوم[2]، ان هناك احتمال أن نحتاج عملا قويا في قادم الأيام في هذا المكان، يثبت ويقوي وجودنا، تركيبة القافة ممتازة، قد يكلفنا الاخفاق ان وقع 150 قتيلا أو جريحا، الخليفة أحمد بن سالم أبلغ الخليفة التجاني أن المطلوب منه، أن يدفع 2000 بوجو[3] على الفور.

---

[1] هو أحمد بن سالم والده سلطان الأغواط السايح بن زعنون راجع حياتهما تاريخ بني لقواط.

[2] هذه المهمة تكفل بها الأمير عبد القادر إلا أن بني لغواط أفشلوها، وكانت سببا في بداية نهاية مشروعه.

[3] عملة متداولة في العهد العثماني بوجو تعني الوجهين.

يوم 23 أخذنا طريقنا ناحية الحويطة، تبعد عن تاجموت بمسافة 33,7962 كيلومتر جنوب غرب تاجموت، وتبعد بمسافة 28,9682 كيلومتر جنوب عين ماضي، الحويطة أردت الوصول لها رغم أن قصر تاجرونة ليس بالبعيد، إلا أن سكانه وهم أولاد يعقوب هم لغاية الآن يعلنون التمرد، ولا ينصاعون لحكمنا. أرسل لي الخليفة التجاني مقدار الضريبة ملابس، فأبيت ورفضت، وأرجعتها له وحتى يتجنب غضبي، لما وصلت مدينة الأغواط أرسل ست قناطير من التمر، سلمتها للقومية. المهم الحويطة دفعت مستحقاتها من الضريبة، أما أولاد يعقوب هربوا وانتشروا على مسافات متباعدة ناحية الغرب سكان قصر تاجرونة، أرسلوا جوادا وأعلنوا الطاعة، وكلاء القصر وصلوا الحويطة من غد بعد مغادرتنا، ورجعوا من حيث أتو، قصر تاجرونة هو غير تابع للقصور التي تخضع للخليفة من أجل ذلك لم أكتب، ولم أرد على سكان قصر تاجرونة.

أنا أعرف أن عين ماضي بالنسبة لي مسألة حيوية، وان كانت معقدة، قناعتي مقترنة بالمبادئ الآتية: الخليفة التجاني يبعد نفسه عنا ليحافظ على سلطته، وليمارس على أتباعه وظائفه الدينية، هو يريد أن يحافظ على مزاياه، ويبقي نفسه في وضعية الرجل الشريف الغني، ما لا أستطيع أن أغفله، هو أنه رجل متدين جدا، ووقور ومؤدب جدا. الرجل ضروري للبلد هو لفرنسا في غاية الأهمية هو كسب هذه الأهمية من الأخلاقية التي يتمتع بها، هو يساعدنا في كسب ودّ الناس، لما تتنازع القبائل هو من يصلح ويوقف حروبها وفتنها، قصره يستقبل الزوار ويرحب بهم، الخليفة يفتح لهم أبواب القصر، ويعتني بهم عناية الطبيب بالمرضى، لقد جعل قصره للمارين والعابرين، مستشفى يأوي إليه المريض و المحتاج و صاحب الحاجة. نظم قصره لكي يقوم بكل الوظائف، هو يأوي الخائف ويسد حاجة الجائع، حتى المرضى جعل لهم قسما يأوون إليه، أين يجدوا العلاج والدواء لما يحتكم إليه الناس في خصوماتهم، يرضون حكمه وعدله. الناس داخل القصر وخارجه يسمعون رأيه ويسألون نصيحته في عوائدهم ونوازلهم، الناس يضحون من أجله ويبذلون النفس من أجل عائلته، حتى يبقى صوته مرفوعا مسموعا من أجل ذلك، يجب أن نوقره ونحترمه، هذا التوقير وهذا الاحترام، لم يجده من قبل الأمير عبد القادر. الخليفة التجاني يتهمنا أننا نحن من حرض الأمير، وهو الآن يظهر لنا أن الشرف هو من كسبه وليس الأمير، التجاني لما يتكلم عن الأمير ينعته بأنه صديق النصارى، و هو من يتولى أمرهم هذا الخليفة التجاني له ميزة يتفرد بها، هو يرفض أن يُحكم من قبل أجنبي، هو لم يقدم نفسه لباي

تركي، ولم يُقدم نفسه لسلطان المغرب، أو أحد العاملين معه في القصر حتى لما يذهب لمكة، التجاني مستقل بنفسه معتز بها، فعل ذلك مع حكام تونس وطرابلس ومصر وغيرهم. الكثير كان يعتقد أننا لما نحوز عين ماضي، الخليفة التجاني سيخاف ويفر وسبب خوفه وفراره، لا يأتيه من شخصه، بل يأتيه من قلة حيلته، هو لا يملك أدوات دفع عدوه، قصر عين ماضي لم يكن في يوم من الأيام حصن أو قلعة، بني ليرد الأعداء هو لا يملك من الجند إلا ثمانون، هو وقف و تحدى الأمير عبد القادر، بفضل دعم وقوة أحمد بن سالم، هو خضع وسلم لحكمنا، لما خضع وسلم أحمد بن سالم، هو لم يخضع لنا بل خضع لخليفته أحمد بن سالم. أمام هذه الوضعية مواجهة الخليفة، تعني أننا نواجه مجموعات أخرى نحن الآن لا نراها، لو أخذنا طريقنا وحاصرنا عين ماضي، الاحتمال أن الخليفة سيفر، هذا الفعل نتائجه ستكون عظيمة، ولا نستطيع تقدير تبعاته، الاحتمال الأوفر للوقوع، هو أن الخليفة سيغلق أبوابه ويقاوم، هنا نضطر لحسم الموقف، إما بالهجوم واسقاط القصر، أو نعتمد آلية الشغب وخلق الفتنة داخل القصر، هذا الفعل لن ينجح بالضرورة، وتدخل قافلتنا هذه في مواجهة هي غير مستعدة لها، وبالتالي تُستهدف في مرحلتها الأولى، ولن تستطيع أن تكمل وظيفتها الاستكشافية، وهذا يعني الإيذان بهزيمتها، ونحن في بدايات العمليات الأولى للغزو. ها نحن وفقنا وحققنا السلم مع الخليفة ها هو قد أرسل حصان قادة، ورسالة يعلن فيها الطاعة، وتعهد وكلاؤه أمامنا بالطاعة والخضوع للقانون الفرنسي، مع ذلك من شاهد واقعة الخضوع والتسليم، قرأ في عيون الفرنسيين والأهالي لغة الريب والشك، ما خرجنا به أننا لم ننهي عملنا في عين ماضي وأن هناك أيام تنتظرنا، نجهل ما تحمله، وما تأتينا به، هذا يفسر لما لم أتحرك أنا والقافلة العسكرية ناحية عين ماضي، حتى لا أحرج الخليفة لكي يلقاني، واكتفيت بإرسال ضباط ليرفعوا مخططات القصر، ويتعرفوا على المكان، وليعرف الأهالي أن هناك سلطة جديدة ستحكمهم. كما أسلفنا حددنا قيمة الضريبة التي يتوجب دفعها، وقررنا أن نأخذ طريقنا ناحية قصر الحويطة، التي لا تبعد كثيرا عن عين ماضي، و حاولنا أن نترك الأثر الطيب ونحيط الخليفة بأوامر، يفترض أن يقوم بها، هكذا نحن نترك عين ماضي، وقد أضحت معلوماتنا مكتملة عن القصر والخليفة ومن سكنه.

نحن نبتغي من فعلنا هذا أن يقتنع الناس، أن نجاحنا هذا يعني، أن الخليفة الآن هو مطيع ومستسلم لإرادتنا، وهو يشهد على قوتنا، وأن أي شخص يدعي القوة والنفوذ نحن نقهره ونبدد قوته، هو إن

قبل أن نكون أسياد عليه، هو اختار أقل الشر، لأنه ذاق وعلم شر الأمير عبد القادر، هو أظهر لهم قوته ونحن أظهرنا لهم حسن السياسة وتقدير من يستحق القدر والمنزلة، السياسة هي هكذا، نحن أخذنا قسطا من المنافع، والخليفة المعبر عن الأهالي أخذ مثلها.

يوم 24 وضعت رحالي في الرشق على ضفة وادي مزي، مسار ضفة الوادي تقود ناحية تاجموت ومنها إلى الأغواط، يوم 25 وقفنا أمام قصر تاجموت، وبقينا هناك طلبا للراحة يومي 26 و 27 ما وصلنا مدينة الأغواط، حتى وجدنا حفاوة الاستقبال، وحدت أمامي بين 500 و 600 فارس بأسلحتهم في انتظاري، وليظهروا سعادتهم، كانوا يطلقون أعيرة نارية من بنادقهم، حملوا راية خليفة الأغواط، كانت فرق الفلكلور الموسيقية تعزف ألحانا ترحابا بنا. وقف الخليفة أحمد بن سالم مع كبراء البلد، وقد جهزوا أنفسهم ليعلنوا بداية الدفة[1] يوميا بني لغواط قدموا كميات من التمر و أربعون قصعة من الكسكسي هذه تمنح مباشر للقومية الذين رافقوني، وما وقع في تاجموت، وقع هنا في الأغواط وضع السكان سوقا كبيرة عامرة بالبضائع. الخليفة كانت له شرطة نظامية تشرف على الأمن داخل المدينة، ولم يكن عددهم بالقليل، هؤلاء وظيفتهم من الصباح حتى الليل المحافظة على الأمن، سمحت لمن يحمل تراخيص من رجال القافلة العسكرية، أن يتجه ناحية السوق، ويأخذ حاجته من البضائع، وأجمل ما جلبوه القماش والأنسجة وريش النعام[2]. لم أجد صعوبة في ارساء نظام الضريبة وتقدير قيمتها وقبضتها حاضرة، يوم 28 تعجلنا الرحيل، كي نصل قصر العسافية، وقررت أن أضع إقامتي عند منطقة تسمى الرق قريبة من قصر الحيران، تقع جنوب مدينة الأغواط بمسافة 24,1402 كيلومتر، يوم 29 كان يوم راحة لنا، هو يوم وجدنا في قصر الحيران حفاوة الاستقبال.

---

[1] لفظ عند بني لغواط يعني الوليمة الفخمة المعدة لكبراء القوم وخاصتهم.

[2] الأغواط بلد النعام فئة في الأغواط تسمى صيادي النعام مشهورة بصيادي النعام يحسنون الركض والمشي في الصحاري وتعرف الأغواط بلد الغزال غزال المسك وكان يرعى مع القطعان وهذا ليس مبالغة راجع كتاب صيف في الصحراء.

الرحلة من طاقين إلى مكاننا هذا، جعلنا نجوب وطن أولاد نايل، خليفة الأغا1 استفاد من نفوذ القافلة العسكرية، وقام بجمع الزكاة المستحقة على هذه القبائل، نحن متواجدون جنوب مناطق أولاد نايل، غير بعيدين عن قصر مسعد و دمد، إلا أنني لم أرهم رأي العين. قريبا من مسعد و دمد تجد بودرين، وجدت فيها أجمل السهول، سهول القمح هذه المنطقة تُمسكها فرقة من أولاد نايل، تسمى أولاد يحيى بن سالم، هؤلاء سكنوا الصحراء، وأنهم لم يخضعوا في حياتهم، لا للأتراك ولا للأمير عبد القادر. واصلنا رحلتنا يوم 30 توقفنا في بودرين، قصر مسعد و دمد أرسلوا جياد قادة، قايد الأرباع و أغا أولاد نايل أعلنوا الطاعة، وقبلوا أن يدفعوا الضريبة قمحا في مستقبل الأيام، لأنهم الآن غائبون، وهم يضعوا خيامهم قرب تقرت، اضافة للضريبة يجب أن يدفعوا العشور نقدا ما قيمته ألف بوجو، ويجب أن يتوافق ذلك مع نسب الحصاد، التي تقدر بالعشر، ويحصل ذلك أوان الحصاد وهذا يفترض احترامه.

قمنا بعملية استطلاع مسافتها تقدر 7 كيلومترات جنوب بودرين، واصلنا طريقنا على مسافة 9,65606 كيلومتر، وقفنا عند مصب واد الحمار2 في وادي الجدي أين يلتقي الواديان، هذه النقطة يتوقف فيها وادي مزي، ويواصل وادي جدي مجراه هنا، هو لا يرى، يجري أسفل الأرض، تغطيه الأشجار. وادي الحَمَّار يأتي من ناحية الغرب، أيام هطل الأمطار، يتحول إلى سيل جارف عظيم، يجرف كل ما يراه أمامه، ومن يراه الآن ساكنا لا يصدق ما يفعله أيام الطوفان، رغم الجفاف ترى الآن عين ماء تتدفق هي نقطة التقاء واد مزي بواد جدي، بالقرب من العين تشاهد آثار مدينة

---

[1] أغا أولاد نايل كان هو وخليفة الأغواط ممن يرافق قافلة ماري مونج.

[2] واد مزي هو فرع من واد جدي يغطي ناحية الأغواط، لما يصل واد مزي واد الحَمَّار يستعيد وادي الجدي اسمه الأول في الثقافة المحلية واد الحَمَّار، يعبر عن القوة والشراسة لما يتحرك أيام الطوفان، واد الحَمَّار يجرف أمامه كل شيء من أجل ذلك، الحاج عيسى شبه قدوم فرنسا بطوفان واد الحَمَّار. تنبأ أن فرنسا تدخل الجزائر وتحتل الأغواط، وتبيد أهلها تقتل رجالها وتسبي نساءها هذا موثق في قصيدته المدرجة في الكتاب مترجمة، أنا أمتلك النص الأصلي يقول:

طُّلْ شُوفْ شْعَاعْ أَلْفْ عَلَامْ فِي الغَبَارْ قَاصِدْ مَزْغَنَة لِـــــــوَادْ الحْمَّارْ

كبيرة1 يظهر لي أنها رومانية. أخبرني العارفين من كبار العرب، أن هناك كتابات تشبه الكتابة الفرنسية وجدوها على الآثار، الحاج عيسى ولي مدينة الأغواط تنبأ منذ 130 سنة أن فرنسا ستحتل العاصمة الجزائرية، وتصل إلى مدينة الأغواط، وستمر على واد الحَمَّار، حفيده أنشدني قصيدته المحملة بالتنبؤات. قمت بترجمتها وهي في نهاية الكتاب من أجل ذلك نظمت رحلتي على أن أمر بمنطقة بودرين وأصل مكاني هذا، حتى تصدق النبوءة ويصدق معها القائل وهو سيدي الحاج عيسى2.

ها نحن الآن نكمل سيرنا وصلنا مسافة تبعد عن العاصمة 617,988 كيلومتر، وتبعد عن مدينة الأغواط بمسافة 53,1084 كيلومتر، لم تستطع قافلة قبلنا من تجاوز هذه المسافة الكثير من بايات الأتراك هزموا أمام أسوار الأغواط3، حتى الأمير عبد القادر وقف أمام أسوار الأغواط، والقوة التي أرسلها هزمت وتحطمت. أما نحن استطاعت قوة القومية التابعة لنا، أن تتجاوز أسوار الأغواط دون حرب، ولا نزال نفعل ذلك لأننا أقوياء، قوتنا تجذب الآخرين نحونا، هم يدعوننا ونحن نأتيهم. ارتفعت درجات الحرارة قلت المياه، ومن النادر الآن أن ترى مساحات خضراء، بإمكاني أن أعود لأولاد

[1] هذه مدينة كبرى تعود لقبيلة مغراوة تم طمسها وهي تحتاج لدراسة لإعادة بنائها تاريخيا تنضاف لها الامبراطورية الأمازيغية الكبرى لخنق نفدجيل Nefdjil أنا العبد الفقير لا خيل عندي كما يقال العين بصيرة واليد قصيرة ستأتي أجيال قادمة تحيي حضارة بني لغواط و ليس ذلك على الله بعزيز.

[2] بعد دراسة علمية للنصوص ومقاربة تاريخية، عرفت أن ضريح المسمى الحاج عيسى رفع قبل أو بعد، والأرجح الأكيد أن ماري مونج هو نفسه من أمر برفعه، حصل هذا بعد مائة ونيف من وفاة الحاج عيسى، حيث نُبش قبره وكان موجودا في مقبرة أولاد هلال راجع رسالة الجفر في الشعر الشعبي الجزائري نفس الشيء ينطبق على الضريح الكاذب المسمى سيدي عبد القادر، واضع الضريحين هو نفسه أراد أن يحصر الأغواط بين ضريحين، راجع التعليق في نهاية الكتاب، إلا أن الله رد كيدهم في نحورهم وهو العزيز المتعال.

[3] هذا غير صحيح نقرأ في Wikipedia الفرنسية لما تكلمت عن قبيلة مغراوة: الأغواط عضو فعال في قبيلة مغراوة، قتلوا في معركة سالا المغربية، لما خاضوا حربهم ضد الموحدين، راجع تاريخ بني لقواط، راجع كذلك رحلة مُحَمَّد الباي الكبير لابن هطال التلمساني.

نايل وآخذ حاجتي، إلا أن المعسكر الذي وضعته بينهم، أحدث فيهم القلق، هم غير مرتاحون من وجودنا من أجل ذلك، هم الآن يفرون خائفين. عزمت على أخذ طريق العودة، لما أعود أدراجي سأجد حتما الماء والشجر، وكذلك الخضرة، علمت منذ ستة أيام أن قبائل أولاد سيدي الشيخ، قد أعلنوا الحرب المقدسة، وأن سلطان المغرب أرسل قوة كبيرة تدعم الأمير عبد القادر في حربه ضدنا1، الخليفة التجاني لم ينتظر وأعلمني بمعلومات صحيحة وحقيقية. أخيرا عرفت أن الأحداث الواقعة ناحية الغرب قد وصلت ناحية تيارت، وعلمت أن العقيد أيا نار Eynard هو يتحرك ليصل نواحي جبل العمور من أجل ذلك، قررت أن أمنح الخليفة أحمد بن سالم مزايا تمنحه قوة في ظل هذه الظروف الرهيبة، وبالتالي أكمل الوظيفة التي يفترض أن يقوم بها. يوم 31 ماي عدنا لمنطقة الرق حتى أن شجر التماريس بدأت أغصانه تجف، وبدأت

الحرارة في الارتفاع حتى أنني سجلت بميزان الحرارة درجة مقدارها 40 درجة، يوم الفاتح من جوان كنت في مدينة الأغواط وصلتني رسالة من الجنرال دو بار de Bar حاكم مقاطعة الجزائر العاصمة الرسالة مؤرخة يوم 23 ماي يخبرني عن الاستعدادات لخوض الحرب ضد المغرب وطلب مني الرجوع السريع2..

[1] التحالف بين سلطان المغرب وقبائل لبيض سيدي الشيخ والأمير عبد القادر هو مفتاح فهم تاريخ الجزائر خاصة وتاريخ الأغواط لأننا نتكلم هنا عن نواة تأسيس الحلف الماسوني الصليبي الحركي الواقعي بعدما كان مجرد عمل جواسيس يثيرون الناس على الدولة العثمانية ويبشرون بقدوم الفرنسيين هذا الحلف سيحسم المعركة نهائيا لصالح فرنسا والله المستعان.

[2] في البداية الحلف الماسوني نشر بين الناس أن طرد الدولة العثمانية، بديله حكم سلطان المغرب مخزن الماسونية منذ الأبد، وبشروا بقيام دولة آل البيت أحفاد الأدارسة، وتحويل الناس إلى سادة وعبيد، ومنحوا فرصة لدخول فرنسا الجزائر ما دخلت، حتى انقلبوا وفوضوا فرنسا لتحكم، وهذا يفسر استسلام الأمير لفرنسا، وتحول كل ولاته ووكلائه لخدمة فرنسا على استثناءات قليلة، عرفوا مشروعه ومنهم المجاهد التلي بالكحل.

الخليفة أحمد بن سالم الذي حطم حامية الأمير عبد القادر، وغنم منه قطعة مدفعية،1 أنا شاهدتها كنت أريد أخذها، إلا أن سرعتي في الرجوع لم تيسر أمري هذا وتركتها لأهل المدينة، وما شجعني على ذلك أنني أردت أن أترك الانطباع، بأن هناك ثقة مشتركة بيني وبين سكان المدينة، لما تترك قطعة مدفعية للأهالي، أنت لا تحتاج لتقول لهم أنني أثق فيكم وفي نواياكم.

يوم 2 جوان كنت في قصر تاجموت قطعت مسافة 38,6243 كيلومتر، هي طريق رملية متعبة ومرهقة، بل أقول ومضنية هكذا نكون قد أنهينا الملف الاداري، وما بقي سوى أن أمنح عطلة للخليفة أحمد بن سالم، ومن هم معه من القادة والكبراء. اليوم نفسه وصلتني رسالة من السيد الحاكم رسالة قادمة من دلس، تاريخها يوم 23 ماي تطلب مني الرجوع إلى مدينة تيارت، والسبب الحرب المعلنة ضد المغرب، أربعة أيام متتالية وصلتني نفس الرسالة، هذا يظهر قيمتها وأهميتها.

مررنا بين سلسلتي الدبدابة وكذلك الكرفة في جبل العمور، ما جاء ناحيتي أحد، ولم يسألني أي واحد عن سبب مروري، ومع ذلك اقتحمنا جبال العمور، وأخذنا كل احتياطاتنا، وساعدنا في معرفة المناطق بعيدها وقريبها، رجالنا من القومية. كنت على يقين أن هناك من يتربص بنا، ويحاول مهاجمتنا والمكان المفضل الذي يغري بالهجوم علينا، وهو الأقل وعورة تجده في مكان يسمى مقطع سيدي بوزيد. كنت أرى أمامي سلاسل جبال متصلة ومتواصلة، كنا نتحرك فيها أحادا لا جماعات هذا جعل قافلتنا تطول، وتستطيع أن تتصور هذا الطول، ومعنا 1400 حيوان من أجل ذلك احتجت لقطع مسافة 38,6243 كيلومتر، لكي أصل واد زيرق احتجت، أن أُفعل النظام الليلي وكان في غاية الدقة والنظام.

يوم 4 وصلنا إلى مقطع سيدي بوزيد، قايد قصر زنينه وهو من أولاد نايل جاءني إلى المعسكر وأبلغني أن الهدوء يعم منطقته، إلا أن قصر سيدي بوزيد التابع لجبل العمور لم يرسل أحدا ما وجدنا إلا حقول القمح اقتحمناها.

---

[1] هو يقصد أفعال سي عبد الباقي، أمير الأمير عبد القادر وأفعاله في المدينة، وكيف طرده أهل الأغواط وأخرجوه مهزوما، وسلبوا منه الغنائم، ومن أهمها قطعة مدفعية.

يوم 5 وصلنا ماكراولة هي منطقة سهلة وميسورة المسالك، يوم 6 وصلنا طاقين ما وصلنا حتى شعرنا بالأمن والأمان، لم نجده أيام كنا في مناطق متيجة منذ سنوات قليلة. عربة الاسعاف كانت تحمل 13 رجل بينهم 6 تعرضوا لتقرح الأقدام، وجدت محمية طاقين في أحسن حال، يوم 7 هو يوم راحة واستجمام، يوم 7 أنهينا التحضيرات والاستعدادات. للتوجه ناحية بوغار يوم 8 وصلنا مدينة تيارت، ومنها أخذنا الطريق ناحية بوغار، بعد تحضير واستعداد هناك من حضر نفسه للمغادرة، هم مئات من الرجال والحيوانات. طبعا اكتفينا بمن نحتاجه فقط، أنزلنا الأحمال على الجمال وتركنا قومية التل العاملة معنا، بقي معي 100 من الرجال كلهم حملتهم الجمال، وصلوا بوغار بعد 3 أيام لم تحصل حوادث تذكر، رغم أننا قطعنا مسافة 144,841 كيلومتر.

يوم 9 تركنا مقر الاقامة في مقرونات، واتجهنا ناحية كوجيلا، يوم 10 وصلنا منطقة زارات، يوم 11 وصلنا تيارت، عربة الاسعاف كانت تحمل مريضا واحدا فقط، الحرارة جد مرتفعة، هي هكذا مستمرة ظهرت مشكلة كبيرة، وهي انتشار ذبابة الخيل هي تهدد الخيل، وتكاد تقضي عليهم قمنا بمحاولات عديدة، لنخفف من وجودها، والتقليل من أضرارها في الأثناء الخيول والبغال، تعاني معاناة شديدة، كان علينا أن نجمع الجمال من الساعة التاسعة حتى الساعة الرابعة، ونحيطها بالنار حتى نبعد الحشرات عنها.

خرجنا من بوغار يوم 10 ماي، قطعنا مسافة 820,765 كيلومتر في 32 يوما، وقطعنا مسافة 386,243 كيلومتر بين بودرين وتيارت، 12 يوم قطعنا مسافات في الحر الشديد، والرمال الملتهبة وجدنا التعب الشديد، عانينا من قلة المياه وسوء جودتها، ومع ذلك لم نفقد رجلا واحدا، ولا جملا ولا فرسا، ضيعنا جملين، ولم نترك وراءنا شيئا، لم يصبنا حريق ولم نتعرض لسرقة بندقية أو سطو، باستثناء حادثة وقعت في زارات. قبل أن نصل مدينة تيارت بليلة قبيلة لحرار، سرقوا سلاحين وجرحوا جنديا ـ هذه القبيلة أرجعت السلاح المسروق وهو بندقيتين ودفعت غرامة كبيرة عقابا لهم عن جرمهم ـ لم نسجل أمراضا خطيرة، ولم يشتكي أحدا من تصرفات جنودنا، انضباطهم أذهل كل من رآهم من الأهالي، أو شاهد فعلهم وحركتهم، قارنوا أفعالنا مع الأفعال التي كان يقوم بها بايات الأتراك، وأفعال جند الأمير عبد القادر من أعمال نهب المنازل، وتجريف البساتين يفعلون هذا الفعل لأناس لا حول لهم ولا قدرة على الدفاع، أو حتى حماية أنفسهم.

لما كنا في مدينة الحويطة، مقر إقامتي كان قرب الجدران المتداعية، حيث توجد البساتين مع كثرة الأشجار وتنوع الخضروات، وسهول الشعير والقمح الصلب الناضج ينتظر من يحصده. نعم هناك قلة الغابات والمساحات الخضراء، وهناك احترام للممتلكات، يظهر النظام والتجانس بين أهالي الحويطة، الانطباع العام الذي وجدناه بعد هذه الزيارة، أن هذه المناطق تحتاج نظاما اجتماعيا وعسكريا عاليا يعطينا القدرة على فرض إرادتنا، وعلاج المسائل العالقة، ويجب أن تكون هذه القوة مصدر قلق لأعدائنا، إن الأقوال والعهود التي قدمناها لمن آتانا، يجب أن تكون عهدا وميثاقا لنا لأن صدق العهد والميثاق، يمنحنا القدرة على إدارة البلد، والعمل على تحقيق مصالحه العامة.

لما ظهرنا أول مرة في قصر تاجموت، كل واحد فينا أبعد نفسه، وفسح المجال للخليفة أحمد بن سالم، أن يتكلم بصفته خليفة، وتعاملنا بلطف واحترام، وأنزلنا الناس منازلهم ولم نهن حتى صغار القوم ولما اشترينا دفعنا مستحقاتنا، لأننا هنا في مهمة وبعثة حضرنا هنا لنبني لا لنهدم، نريد أن نخبر ونقول أننا نحن هو النظام، ونحن من يعيد للأشياء نظامها، لما كنا نخترق التجمعات، لم يخف الناس، ولم يفروا هي الثقة المتبادلة، وجد جنودنا الاستقبال والحفاوة وجدته هنا، ولم أجده في مناطق الجزائر الأخرى.

تبعا لتعليمات السيد الحاكم، قرب خيمتي توجد هناك كتيبتان من قوات النخبة، هناك كذلك حراسة موثوق بها موجودة غير بعيد، هناك مراكز مراقبة خفية لا خيم لها ولا توقد الشموع، ينهض الحراس بمهات خاصة منتصف الليل، لأنه الوقت الذي يناسب الأعداء ويشجعهم على مهاجمتنا، ويجعل مهمتهم يسيرة.

لما ذهبن ناحية كرفة أخذت معي 4000 علبة مؤن، وكان بإمكاني أن أجعلها 100000 علبة لتخزينها وتهيئتها، اعتمدت نفس الطرق التي اعتمدت، لما جلبت من فرنسا، كنا نسميها علب هنغاريا هي ناجحة وأساسية، كنا نعزلها عن بعضها البعض بواسطة العشب، وكنا نحافظ عليها رطبة، كنا كل يوم نبللها بالماء 4 و 5 مرات لمدة 66 يوما، لم نحتج شيئا هي أسعفتنا في رحلتنا، وهيأت لنا أسباب نجاحها.

نظرة عامة حول البلد المزار

البلد المزار من البحر حتى الصحراء الكبرى، يحوي المناخات الستة المتمايزة، المتيجة أرضها ساخنة ومنخفضة ورطبة، الأطلس عرضه 120,701 كيلومتر، قمم جباله ترتفع فوق سطح البحر 1600 متر، مناخه مناخ الجنوب الفرنسي، حدوده الجغرافية بوغار. الصحراء الصغيرة أرض مرتفعة قليلة المطر، ثم تجد سلسلة جبل العمور و سلسلة جبل السحاري عرضها 120,701 كيلومتر، ارتفاعها يناظر منطقة Les Vosges1، ثم يأتي جزء من الحوض الشمالي لضفة وادي مزي2، تشكل سلسلة من المرتفعات الحادة الأراضي قاحلة والحرارة مرتفعة، بعد الأغواط تبدأ الصحراء الكبرى، تقل المياه وتصل لدرجة الندرة، الصحراء الكبرى أراض واسعة وشاسعة ومنبسطة وممتدة.

الحبوب لا تحتاج للسقي يكفيها المطر من البحر حتى مسافة 193,121 كيلومتر من بوغار، بعد هذه المسافة القمح هنا يحتاج إلى السقي، باستثناء بعض المناطق المرتفعة أين ترتفع فيها درجات الرطوبة من المحتمل أن الأندلسيين، الذين استحدثوا وسائل جديدة في الري، اعتمدوها في اسبانيا هي نفسها المعتمدة هنا، أين أدخلوا وسائل جديدة نافعة في ري المناطق الصحراوية.

المتيجة يكثر فيها نبات الصّبار والنخل والكمثري الشائك والبرتقال، هذا الأخير لا ينمو في مناطق الأطلس، أشجار مناطق الأطلس هي نفسها التي نجدها في الجنوب الفرنسي شجر الدردار والبلوط والصنوبر وشجر السرو وغيره كثير، أشجار الصحراء أكثرها العرعار الذي يصل ارتفاعه أحيانا عشرة أمتار، وتجد كذلك شجر الخروب، ويكثر شجر التماريس في المناطق الرطبة، تجد كل الأشجار المثمرة الموجودة في فرنسا، تجدها في بساتين القصور كلها دون استثناء، تجد في جبل العمور وجبل السحاري أشجار البلوط والسرو في المناطق الشمالية القريبة من متيجة، النخل لا يعطي تمرا ما هو

---

[1] Les Vosges مقاطعة فرنسية واقعة في الشرق الكبير الفرنسي ما يعرف بمنطقة اللورين Lorraine.

[2] واد مزي هو جزء من وادي الجدي العظيم ذكره الكتبة الرومان وقالوا أنه يشبه نهر النيل اعتمد الكاتب على المصادر الرومانية القديمة وعلى رحلات الرومان ناحية الصحراء.

موجود أصلا هي الأشجار المثمرة، هي لا تصل مناطق الأطلس ولا مناطق الصحراء، وكذلك هي منفصلة ولا تصل جبل العمور هي محصورة جنوب متيجة، وتعطي ثمارا وفيرة مع نهاية سهول متيجة انتاج القمح والشعير مكلف وأثمانه غالية. النظام الغذائي في هذه المناطق هو التمر والخضروات، أما البيئة الجغرافية فهي غنية ومتنوعة، تجد المياه المعدنية وتكثر الزواحف وكذلك الحشرات وتتنوع الطيور، هذا انعكس على حياة الناس، حيث هناك تنوع في عوائد الناس، العادات والتقاليد هنا هي أقرب للطابع الافريقي، وبالأخص الطابع الموجود في إفريقيا الوسطى، المرتفعات في الصحراء الصغرى والكبرى، تغلب عليها التضاريس الصخرية في المناطق السفلية، توجد طبقة سميكة جدا من التربة تبدو جيدة وصالحة للزرع.

الصحراء الصغيرة هي مراعي خصبة غنية بالعشب العلفي المفيد للقطعان[1]، ويكون أخصب شهري ماي و جوان، هذا العشب يقل في جبل العمور وينعدم في الصحراء الكبرى، ولا يوجد إلا في المناطق الرطبة، ما هو موجود ومهيمن هو نبات الحلفاء، هذه المناطق كلها مقفرة غير آهلة بالسكان بالمختصر المفيد هي سهول لا نهائية، يغمرها نبات الحلفاء لما يجف نبات الحلفاء والعشب، يكون للقطعان كبديل للتبن، نبات الحلفاء يستعيد خضرته مع هطل أمطار نوفمبر.

عثرنا في الصحراء على كميات كبرى من الكمأة، كلها رائعة لونها أبيض مذاقها رائع وجميل، الناس يحبونه ويرغبون فيه، لأنه غني ومفيد للصحة، وهو صالح ليكون بضاعة ومن أراد تخزينه يقوم بتجفيفه أولا.

الأسود والفهود المنتشرة في المناطق الغابية للأطلس لا وجود لها، لا في الصحراء الصغرى ولا الكبرى، بداية من طاقين تستطيع أن ترى النعام، هناك غزلان كبيرة الظباء تشبه حيوان الرنة يسميها العرب اللَّواش[2]، وهناك ظبي كبير يسميه العرب لروي لونه أسمر ممزوج بصفرة، شكله أقرب

[1] هو يقصد منطقة الشبكة القريبة من قصور بني ميزاب.

[2] اللَّواش أنا لا أعرفه أعرف لروي في طفولتي جار لنا علق في صالون بيته رأسين محنطين لحيوان لروي شاهدتما معلقين.

ما يكون للجمل، له شعر طويل عند العنق وعلى الصدر، شاهدنا في الصحراء الكبرى العديد من الأفاعي ذات القرون، وهي أفاعي في غاية الخطورة، وشاهدنا كذلك سحالي يصل طولها لما يقرب من متر، ذيلها مستوي ومسنن، أطول ثعبان شاهدناه، لم يزد عن مترين ونصف، هناك من يتكلم عن وجود ثعبان البوا boas، الموجودة في مناطق نحن لم نصلها لصعوبة الوصول إليها، ومع ذلك لم يخبرني أي انسان بأنه رآها رأي العين، هناك من يتحدث ويقول أن هناك ثعابين لها رأسين، وعدت من يحضر لي هذه الأنواع من الأفاعي، أن أمنحه مكافئة إلا أن طلبي لم يتحقق.

لما يرتفع ريح البحر فوق متيجة ويصل ناحية الأطلس، يبرد ويتشبع بالرطوبة، ويتحول إلى ضباب يغطي مناطقه، ومنه من يتحول إلى مطر ومنه من يكون ثلوج، بعض ذلك يصل الصحراء الصغيرة ويقف على سلسلة جبل العمور وجبل السحاري، ومنه من يصل حتى مناطق الصحراء الكبرى، مما شاهدناه أن سماء متيجة تكون صافية في حين تكون سماء الأطلس غائمة. ما تراه في الصحراء الصغيرة، هو جمال الطقس و السماء الصافية، في نفس الوقت تهطل الأمطار في مناطق الأطلس وكذلك في جبل العمور، لما وقفنا في منطقة توزع المياه في جبل العمور، كنا نرى هطل المطر ناحية جبل العمور وصفاء السماء ناحية الصحراء الصغيرة.

الرياح الجالبة للمطر تكون أكثر في الجبال، وأقل في الصحاري، هذا يفسر لما تكون الصحراء جافة على الدوام، وتفسير ذلك أنها مرتفعة ولا يصلها مطر الخريف، الأمطار التي تصل الصحراء هي أمطار الطوفان، تأتي قوية وغزيرة، إلا أنها نادرة وهذا واقع في كل الصحراء. جبال الصحراء لا تصلها الأمطار، ولا يصلها بطبيعة الحال الثلج، ومن أجل ذلك تقل وتخف الرطوبة، ويبقى عشب الصحراء طويلا محافظا على طبيعته، كل سنة الثلوج تتساقط على مناطق الأطلس، وكذلك جبل العمور، ويبقى التساقط لأسابيع ممتدة، لقد رأينا الثلج شهر ماي في جبل السحاري في هذا الشهر من النادر أن يتساقط في مناطق متيجة، وهو ينعدم في الصحراء الكبرى والصغرى، لارتفاع درجات الحرارة.

أجمل فصول السنة في الصحراء هو الخريف و الربيع، فيهما تقل الحرارة ويكثر الماء والعشب من الأهمية بمكان، نعرف أن الصحراء الكبرى، تعرف أحيانا فيضانات كبرى خطيرة، تهدد حياة الناس

لأنها تقع في أراض منبسطة، إن وقعت بإمكانها أن تجرف جيشا كاملا في لحظات، قبل وصولنا بأيام لمدينة الأغواط، فيضانات كبيرة عرفتها مدينة الأغواط، جرفت دواوير كاملة يسكنها العرب.

رمال الصحراء تكاد تكون واحدة في كل الصحراء، مثلها مثل الحجر الرملي المصفر المطعم بالحمرة، الرمال تبدأ من مناطق طاقين، وتكون أكثر في مناطق الزرزاز، وتبدأ الرمال كذلك من جبل العمور وجبل السحاري في اتجاه الصحراء، ومن زار هذه المناطق يشاهد الرمال في أعالي الجبال والمنحدرات السفلية، حيث يتراكم بشكل يلفت النظر وتشاهد الرمال. كذلك قرب الوديان وفي مجاري الوديان، ويجتمع الرمل عند الحواجز الصخرية الواقعة ناحية الجنوب، والرمال هي أكثر بالقرب من مدينة الأغواط والظاهر، أنها غير أصلية بل هي حملت بواسطة الرياح، وتراكمت عبر الحقب والسنين الطويلة، وهي تتراكم أكثر على القمم والمرتفعات.

الرمل الأصفر المطعم بالحمرة يكسي المناطق بالكلية، ويعطي لونا خاصا للبيئة وينعكس ذلك حتى على لون السماء، ومن أراد أن يدرك ذلك فلينظر للأفق زمن منتصف اليوم إلا أن التحديق في هذا الزمن، يحدث ضررا كبيرا للبصر. تراكم الرمال مدمر لجريان الوديان، هو يوقف تدفق المياه ويحجزها في مناطق معينة، ومياه كثيرة تتسرب إلى أعماق الأرض ولا يستفاد منها، أمطار الخريف توصل المياه إلى أعماق الأرض، وبالتالي تحافظ على انسياب المياه الجوفية، أيام الخريف تعمر مجاري الوديان، وتكثر مياهها حتى العيون تتفجر ويظهر ماؤها منسابا فوق الرمال، عيون الماء تنساب لما توجد أرض صلدة تنساب عليها وتغطيها الرمال لما تصل هذه العيون، وتظهر على السطح تنساب مياهها وتتوزع على الأراضي القريبة منها. ما شاهدناه أنه كلما كانت الطبقة الرملية أقل سمكا تكون عيون الماء أكثر تفجرا، لذلك عيون العسافية و الحويطة هي بالكاد يتجاوز مدى سقيها للبساتين 50 مترا، المدى هنا يتناسب بسمك الرمال، كلما قل السمك زاد المدى والعكس صحيح. واد مزي أسفل قصر تاجموت يرسم لوحة فنية رائعة، هو ينساب ويمتد فوق حُلّة رملية عريضة، يختفي ثم يعاود الظهور قريبا من منطقة الرشق ثم يختفي مجددا، ويعاود الظهور أسفل مدينة الأغواط، ثم يختفي وبشكل نهائي، حتى أننا لما نصل لقصر الحيران القريب من الأغواط الماء ينعدم، ويستعين الناس بالآبار لتوفير حاجتهم للماء. الآبار هنا يصل عمقها من 3 حتى 4 أمتار، الناس هنا لا يعرفون الماء ولا يصلهم إلا أيام الفيضان، ومع ذلك هم يستفيدون من الرطوبة المتبقية التي تبقي العشب رطبا وكذلك

الأشجار، رمال وادي مزي هي خطيرة جدا وخاصة على قوافل الجمال، من لا يعرفها يوقع جماله في أماكن، لا تستطيع الخروج منها، وحتى تتحرك القوافل في هذه المناطق تحتاج لمن يمتلك الخبرة والمهارة العارف بالمسارات والمسالك الآمنة.

الأمطار أمطار الخريف لها وقع على الجبال، لما تكون أمطار الطوفان الرمال العالقة بالقمم، تنسحب ناحية قدم الجبل، ومع الزمن تتراكم وتنفتح على مساحات أكبر هي أوسع وأعرض، هذه الرمال لها وظيفة هي توقف المياه وتحجزها، لكي تنساب وتتغلغل في أعماق الأرض.

لما يفيض واد مزي الطمي الذي يتركه يحيي الأرض، ويخرجها من مواتها، فتظهر الأراضي الخصبة وينبت العشب، هذه المساحات جعلناها أماكن لترويض الخيول وتأهيلها للقتال.

الأراضي التي رأيناها وشاهدناها هي 6 أحواض:
الحوض الأول: حوض الشلف حدوده الشمالية هي الأطلس، حدوده الغربية هي الهضاب الممتدة من تيارت حتى جبل العمور، حدوده الجنوبية تبدأ من جبل العمور وسلسلة المسقم في الأطلس، مياه هذه المناطق طولها 241,402 كيلومتر، وتقريبا هذا الرقم يعادل عرضها بالمتوسط هذا المجرى المائي نهاياته في الشلف و بوغار.

الحوض الثاني: واقع غرب تيارت، منابعه من منطقة المينة Mina مع وديان أخرى تخترق التل الوهراني.

الحوض الثالث: واقع شمال التلال وبالتحديد غرب خط الواصل بين تيارت وجبل العمور، المتصل بحوض الشط الواقع في الصحراء الوهرانية، هي بالمجمل بحيرات ملح كبيرة.

الحوض الرابع: واقع شرق خط الممتد من مسقم حتى يصل الأطلس شمالا، يمتد من جبال السحاري حتى يصل جنوب الأطلس، المياه تذهب ناحية البحيرة المالحة الواقعة ببوسعادة.

الحوض الخامس: واقع بين المسقم وجبل السحاري، واقع في البحيرة المالحة لمنطقة الزراز بالتحديد عند أولاد نايل.

الحوض السادس: واقع جنوب جبل العمور إلى غاية جبل السحاري، يضاف له حوض واد مزي هو ينتهي عند بحيرة مالحة قريبة من تونس، قبل أن يصل هو يمر قريبا من مدينة بسكرة.

الهضاب الواقعة غرب الصحراء مرتفعة، ثم تنخفض انخفاضا حتى تصل بوغار، الهضاب العليا الواقعة في الجنوب وغرب الصحراء الكبرى هي أقل ارتفاعا من الهضاب الواقعة في الصحراء الصغيرة هي تبدأ في الانخفاض، حتى تصل وادي مزي، وتبقى في مسارها هذا حتى تصل بسكرة، حتى تصل البحيرة المالحة في منطقة شط ملغيغ[1].

يمكن تقدير الارتفاعات فوق سطح البحر كالآتي: متيجة 150 مترا الأطلس المتوسط هو 900 متر الصحراء الصغرى أسفلها 650 مترا بحيرة الزراز 700 مترا، الصحراء الكبرى المناطق السفلية بين مزي وبسكرة 75 مترا الارتفاع ناحية الأغواط 850 مترا الهضاب العليا 900 مترا ـ راجع الجدول في نهاية الكتاب المتعلق بالارتفاعات[2] ـ .

نجد في الصحراء الصغرى جبال على شكل مجموعات غير مترابطة فيما بينها، أما الصحراء الكبرى ما رأيناه هي بالمجمل منبسطة، سمعت من سكان الأغواط لما نتجه جنوب الأغواط، نقطع الأيام الطويلة ولا نرى إلا الهضاب ذات التموجات القليلة، وهذا ما رأيناه نحن بأعيننا من مرتفعات جبل العمور، وصولا لجبال الأغواط. ما وقفنا وحدقنا ناحية الجنوب ما رأينا إلا الأفق المنبسط الممتد، هو يشبه أفق البحر المنبسط الممتد في الأبعاد، نعم جنوب الأغواط، لا ترى عوجا هو الانبساط الممتد.

ما يمكن ملاحظته أن هناك حركة أرضية، هذه الحركة تبدأ من السواحل وتمتد حتى تصل وسط القارة الافريقية، هذه الحركة أحدثت الانكسارات التي أنتجت الأحواض التي تكلمنا عنها قبل ذلك.

---

[1] هذا المكان هو نهاية وادي الجدي.

[2] الجدول أرفقه الكاتب بالتقرير النهائي للبعثة.

كانت مياه البحر تغمر الأراضي، ما يؤكد ذلك الأصداف البحرية التي وجدناها متناثرة، وهذه الأصداف أكثر ما تكون عند الأحواض، التي تنتهي عند الساحل، من أجل ذلك المياه القريبة من الأحواض الساحلية، هي تصب في البحر تمركز المياه في مناطق محددة، يجعلها تغوص تحت الأرض، وهذا يفسر كثافة الملح الذي نراه في البحيرات المالحة. هذا المخزون المائي يكثر بفعل أمطار الخريف، لذلك البحيرات المالحة تغمرها المياه، فصل الخريف وتجف أيام الصيف وارتفاع الحرارة، وما لاحظناه أن كل البحيرات الداخلية هي كذلك مالحة، بل هي أكثر ملوحة، عرفنا ذلك لما قمنا بعملية حسابية، ومنها وصلنا للنتيجة التالية: أظهر البحث أن كمية الملح الصلدة المماثلة لكمية الملح في البحر، وجدناها نفسها في حوض الزراز وسجل الحساب النتيجة التالية: 120,701 كيلومتر مربع مع 200 متر ارتفاع.

جبل الملح القريب من حوض الزراز، يفسر وجوده بارتفاع الملح عن الماء، ثم تماسكه وانفصاله عن الماء، ولو أردنا حساب هذا الجبل 4,82803 كيلومتر مربع ارتفاع قدره 200 مترا هذا الجبل كله مشكل من ملح البحر.

الأمطار الغزيرة الشتوية تجرف سنويا، كميات من التربة ناحية الهضاب العليا، ويتم جرف التربة من المناطق غير الغابية، هناك أجزاء مرتفعة من الصحراء الكبرى هي كلها لها تضاريس صخرية، أما أسفل هذه المرتفعات الجبلية الصخرية، تجد أراض فلاحية. إلا أنها قليلة بالمقارنة مع المساحات الشاسعة التي تكسوها الرمال، المياه لا توجد إلا بوجود القاع الصلب الذي يحمله، وهو في كل الأحوال رديء، تبقى المناطق قاحلة بالمجمل ولا يمنع ذلك أن هناك مجاري مائية، هي تحت الأرض في هذه الصحراء القاحلة.

الجبال الواقعة في الصحراء جبال الأطلس وجبل العمور، تشكلها طبقة قوية جدا من الحجر الرملي المائل للحمرة، من المحتمل أنها ممتدة أسفل الأرض، والظاهر أنها تصل مستوى الأرض في الجزئيين العلوي و الجنوبي من الصحراء الكبرى، ثم تفككت بفعل الرياح والأمطار وكذلك الشمس، وتركت المكان للرمال الكثيرة، التي تحركها وتبعثرها الرياح، وخاصة رياح الجنوب.

إذا سألت العربي عن وطنه يقول: التل وطن الحبوب، وأهله هم الفلاحون المعرفون أما الصحراء وطن المراعي، وأهلها الرحل المرتحلون، نحن نخطئ لما نتصور الصحراء أرضا قاحلة، كما تعلمنا وعرفنا في مدارسنا، ومن يعتقد أنها أرض لا تسكن هو لا يعرف صحراء الجزائر، هي صحراء بها مناطق ممتازة وأخرى متوسطة، وبعضها في غاية السوء مناطق الألب التي نعرفها، توجد فيها مناطق تزرع بالحبوب، إلا أن المناخ يمنع حصادها وتتحول إلى مجرد مراعي، الصحراء عند العرب معنى لا نعرفه نحن، ولا نجده إلا لما نعاشرهم، ونفهم طبيعة حياتهم البدوية، لو كانت الصحراء الصغيرة هذه في فرنسا لكانت مروجا وبساتين عامرة بالخضرة والعطاء، حتى الصحراء الكبرى مناطقها السفلية عامرة بالسكان، وأهلها يزرعون النخل ويجنون أنواع التمور، من الصحراويين من يزرع الفاكهة والحمضيات والخضروات و غيرها، يكفيه في جهده أن يجد الماء ليحول الصحاري جنات غناء. أهل الصحراء يحفرون الآبار، لسقي حقولهم وبساتينهم، هذا في غياب الموارد المائية، كالعيون و الوديان، الأرض في الصحراء خصبة دون استثناء، يكفيها الماء فقط إذا وجد، إذا غاب الحرث والزرع، الرمال تكتسح المناطق وتغطيها، الأراضي المرتفعة في الصحراء هي الأقل خصوبة، وفي كل الأحوال تبقى مراعي صالحة، وإن كانت ضعيفة مقارنة مع مراعي التل. القبائل الصحراوية الساكنة جنوب بني ميزاب، التي لا تستطيع أن تقوم برحلة الصيف ناحية التل، تجد في فصل الربيع من العشب، ما يكفيها لتجمعه وتخزنه لفصل الصيف، أيام الصيف ترتفع الحرارة وتشتد، والأمر سيان عندنا في فرنسا، نحن كذلك يشتد البرد ويسقط الثلج في مناطقنا الشمالية.

ما يعيق الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الصحراء، انعدام القطارات والسكك الحديدية هي المعالم والمنارات التي نستهدي بها الطريق، والصحراء كالبحر لا تعرف إلا بحركة القطارات، واختراقها أفق الصحراء، كما تخترق السفن آفاق البحار، لما أشاهد قوافل الصحراء أقول في نفسي هؤلاء يعيشون الزمن، الذي كانت فيه المراكب الشراعية تمخر البحار. هؤلاء العرب لهم قدرة فائقة على المشي، وقطع المسافات الطويلة في الصحراء، ويفعلون ذلك من أجل تحقيق أتفه المصالح، لأن سعادتهم كامنة في التجوال والتنقل بين الصحاري، وأكثرهم مشيا وركضا هم الصيادون1 يجوبون الصحاري، ترافقهم كلاب السلوقية، وأنواع مختلفة من صقور الصيد، هم يمتلكون مهارة فائقة في تدريب أنواع هذه

[1] الاغواط بلد النعام وأهلها صيادي النعام يجولون الصحاري يمشون ويركضون في ربوعها.

الحيوانات على غير عادة الناس، هم لا يمشون نهارا بل يختارون الليل لأنه الأنسب، هو يمنع وصول اللصوص إليهم، ولا يدفعون الإتاوة التي يفرضها بعض شيوخ القبائل، كحق للمرور وتجاوز مناطقهم. أهل الصحراء يشيدون الدواوير التي يسكنوها عادة في مناطق مخفية حفاظا على أمنهم وسلامتهم، وليمنعوا أنفسهم من الأوبئة المنتشرة التي تجتاح المناطق بين الحين والآخر، لا يستدل على وجودهم نهارا إلا بالمداخن والدخان المتصاعد منها، وليلا يستدل عليهم بالرماد والأطلال المتبقية، حماية الناس يكفلها فرسان القبائل، وبين الفينة والأخرى، يقومون بالغزو، يغزون جيرانهم وهنا يظهرون قدرات كبيرة في الذكاء وسعة الحيلة مع الشجاعة والاقدام، هم بطبيعتهم يتجاوزون الجوع، وينعدم عندهم ويتحملون شح الماء، ويطيقون العطش ويتحملونه، أما التعب والجهد هو من يومياتهم، يألفونه ويتعايشون معه.

سكان الصحراء يعرفون الطرق ويستدلون على الدواوير والتجمعات السكانية، بثقافتهم الصحراوية، إذا سلبوا وسرقوا لهم ألف طريقة لتقفي الأثر والوصول للصوص، منهم من يمتلك قدرات فائقة في التقفي وكشف الطرق، والمسارات الصحراوية، وهناك من يمتهنها مهنة، يتقفى الأثر ويصل اللص ويهدي الضائع، ويفعل أكثر من ذلك. الصحراوي لما يذهب ناحية التل، لا تحتاج لتبحث عنه، هو يعرف نفسه لما ينصب خيمته، ومن يمر من بعيد أو قريب يقول هذا صحراوي، ويعتبر نصب الخيمة من عزته ومنزلته التي لا يتنازل عنها، من يسكن الصحراء هنا في الصحراء، يجد ما هو غير متوقع، والذي يلازمك ولا يتخلى عنك هي الوحدة القاتلة، هي هكذا مستمرة لا تتوقف قد تعيشها كل حياتك، من أجل ذلك أهل الصحراء يبحثون عن الخبر الجديد، ويجدون في البحث عنه، هم متلهفون له يبحثون ويسألون ولا يتوقفون. هذا التلهف سرعان ما ينجلي ما عُرف الخبر، وكأنه لم يسمع ولم يقع، بين أهل الصحراء لغة واحدة متداولة في السؤال والرد، وأكبر الأخبار التي يتداولونها، أخبار الغزو والقتل لأنها واقعة في حياتهم بكثرة ليس كل انسان يحسن الكلام ويفصله، من يمتلك ناصية البيان قلة هم قادة وسادة في مجتمعاتهم، يحسنون الكلام، ويحسنون كذلك الردود، ويوغلون في المعاني ويهملون المباني، هم لا يتعلمونها هي ملكات راسخة في نفوسهم، هي قوة حماية لهم.

هناك فئة نصفها بوصفنا نحن الأرستقراطية، هي هنا في الصحراء وكذلك لها وجود في التل، الشريف لا يبحث عنها، ولا يجدها بما يعطي ويبذل، الشريف من شرفه قومه والكبير من كان كبيرا في أهله

وقبيلته، كل واحد يفرض نفسه في دواره، ويفصل إن كان وضيعا أو سيدا، وقبل أن يفصل يجب أن يمنحه الشرف السادة والكبراء، هو يوسع علاقاته بنفوذه، وبعضهم يكسب هذه السلطة من نظام الحكم القائم، ويكون سيدا لما يحوز الرتب والدرجات المدنية أو العسكرية.

كيف يكتسب الرجل في الصحراء منزلته ومكانته، بين بني قومه: أهل الصحراء ما ينتجون إلا القليل، هم يحملونه ناحية التل أو من يسكن عند ضفاف الوديان، إلا أن رأسمالهم الحقيقي والمتبقي هي قطعان المواشي، يقتحمون بها التل والصحراء. أراضيهم تكفي قطعانهم، فصل الصيف والخريف، وتكون المراعي أخصب أيام الربيع، أيام الصيف القطعان تحتاج المياه من أجل ذلك يقودها الرعاة نواحي صفاف الوديان والأماكن الوفيرة الماء، لما كنت في طاقين عرفت هذه الحقيقة، لما شاهدت عين الماء، طاقين ما كانت تذكر أو توصف بالقوة، لولا هذه العين، لذلك هم يقولون عين طاقين عين الأقوياء، اقتتلت من أجلها القبائل وتنازعوها، ومن حضي بها هو بالضرورة القوي، من يمتلك الماء يمتلك القوة، ومن يفقد الماء هو الضعيف التائه المتسول في الصحراء، أيام الشتاء العصيبة قبائل التل تترك الجبال المغمورة بالثلج، وتذهب ناحية الصحراء الصغيرة، يتركون مناطقهم ويتعايشون مع مراعي الصحراء زمنا، حتى يعود الدفء لمناطقهم فيعودون، ويبقى الحنين دائما لأول وطن. هناك استثناء تجده في جبل العمور وجبل السحاري حيث المراعي الموجودة في الجبال تسقى بعيون الماء، وهذا يشجع الأهالي على البقاء وعدم الترحل والتنقل. الأمر في الصحراء الكبرى خلاف ذلك لا زراعة إلا في الواحات فقط، ومراعي الصحراء إن وجدت هي صالحة للأغنام والجمال مع العلم أن الجمال تتحمل العطش، وتبقى شهورا وهي تتحمل قلة الماء والعطش، فصل الخريف والربيع الأهالي والخيول يجدون حاجتهم وكفايتهم في حليب النوق، الجمال تكفيهم الحليب، ويحملون عليها المياه وينقلونها من مكان لآخر. أهل الصحراء لا يثبتون في مكان واحد مرد ذلك حركة قوافلهم، التي تنتظم بها تجارتهم هي حركة موسمية، أيام الخريف القوافل تتجه ناحية وادي ميزاب، ومنها ينتقلون ناحية تقرت، يبيعون السمن وزبدة الأبقار والصوف، ويتاجرون في الحبوب التي يجلبونها من التل، ويحملون معهم بعض البضائع المجلوبة من أوروبا، ويشترون عادة التمور والأقمشة الصوفية وبضائع أخرى، أيام الربيع يعودون ناحية الغرب، ويتواصلون مع بني ميزاب، ويشترون من عندهم: العبيد وريش النعام ومادة البارود والذهب والفضة وغيره من البضائع، قوافل الصحراء وما تحمله، بالضرورة هي تمُرّ بالأغواط من أجل

راحة جمالهم، من عادة القوافل الصحراوية أنها في فصل الصيف تتجه ناحية التل لبيع منتوجات الصحراء، ويشترون الحبوب، تعود القوافل مع بداية شهر الخريف، لترتاح وتستعد لموسم قادم، وتستعيد نفس النشاط الأبدي الذي لم يتوقف عبر الأزمنة والحقب التاريخية، هذه القوافل تقطع سنويا ما مقداره 2414,02 كيلومتر[1] هي حياة المغامرة عند هؤلاء ساكني الصحراء قبائل الأرباع، انقسموا لفرق هي فرق حرب تدافع عن حياضها وتهاجم أعداءها، ولها كل سنة موسم قتال تشن فيه الحروب الدفاعية، حتى تخرج الأعداء واللصوص والمتربصين من أراضيها، أعداء الأرباع معروفون، هم قبائل الترود[2] وقبائل الشعانبة. هؤلاء هم قراصنة الصحراء هم يهاجمون ويغزون دون حسيب ولا رقيب، قراصنة الصحراء يخافون بعضهم بعضا، وكما يتحالف عليهم أعداءهم، هم كذلك يتحالفون ليقطعوا الطرق ويسلبوا الناس أشياءهم، أهل الصحراء حتى يجوبوا الأوطان يعرفون بعمق السياسات المنظمة لحياة الناس ولا يتجاهلونها، ويعرفون كذلك القواعد الاقتصادية التي تنتظم بها الأسواق. يحافظون على القواعد الصحية المتعارف عليها، أينما حلوا وحضروا هذه القواعد في كليتها هي سبب وجودهم وسر بقائهم، هؤلاء العرب هم أشداء وأقوياء شريسين، لا يأتيهم التعب ولا يعرفونه، يقتصدون الماء يشربون ما يكفيهم، والواحد منهم يصبر على العطش أيام معدودات.

القبائل العربية لا تكتفي بالرعي كمهنة، المجتمع الصحراوي كله ورشة عمل، نظامه هو الاقتصاد المنزلي وحسن التدبير، العمل المنزلي ينتج البضائع، ويحقق المنافع الجمة، أهل التل خلاف أهل الصحراء، شهر الصيف لا يكلفهم بل هو راحة لهم، وان تكثر فيه الحروب الداخلية، يبقى الصيف لأهل التل الموسم الذي تجبى فيه المنافع، ويعم الخير الجميع، يشعر الناس في مواسم الحصاد أنهم أغنياء.

أهل الصحراء هم أهل الترحال والتنقل من مكان لآخر، وهذا لا يعني أنهم لما يرتحلوا يرحلوا معهم حاجاتهم، ليس الجميع له القدرة على الرحلة، لأن الكثير من العائلات هي فقيرة، لا تمتلك الجمال وحتى من كان يمتلكها، هو يفتقدها لسبب أو آخر. لذلك جعلوا لهم محطات توقف وأماكن آمنة، ومخازن محروسة مؤمنة، وقصور يأوي لها الضعيف والفقير هي كثيرة منتشرة في الصحراء، بها أسواق ومتاجر

[1] مسافة تعبر عن حركة أهل الصحراء ونشاطهم هم الآن من أكثر الشعوب خمولا وكسلا.

[2] الترود من قبائل الهقار.

تلبي حاجات الناس الضرورية، بعض هذه القصور يحميها أولياء الله، كما هو حاصل في قصر عين ماضي وقصر الشارف وقصر سيدي بوزيد وغيرهم كثير، هناك قصور أخرى تابعة لقبائل معينة ومعروفة، وهناك قصور أخرى مستقلة لها سيادة ونفوذ، وخير مثال هو قصر الأغواط. القصر في العموم له نظامه، وهو أن لا يسكنه إلا القبائل المنتمية إليه، إلا أنها أي قصور الصحراء لا حياة لها ولا وجود، إلا بوجود التل الذي يمدها بالغذاء، وغذاء أهل الصحراء الحبوب، هذه المعادلة يلخصها مَثل هنا في الصحراء يقول: القصر الذي يأوينا هو والدنا، والسيد الذي يحكم والدنا هو أمنا، وأمنا هي التل، ولا يوجد مع التل غيره، من أراد من عرب الصحراء أن يبني قصرا لعشيرته تشترط فيه هذه القواعد: يبنى في مرتفع، ولا تصله سيول الوديان، ولا يهده الطوفان، وأن يكون قلعة يحمي نفسه من العدوان، ويجب أن يكون الماء فيه أو قريب منه، وأجمل القصور من جاوره واد جاري أو عين ماء متدفقة، وفي أسوء الأحوال أن تكون هناك آبار ماء ماؤها عذب زلال وأن يحاذي القصر الحقول والبساتين، وأن تكون له أسوار وجدر حماية تحميه من هجوم الأعداء، وأن تكون أرضه صالحة لتهيئة المطامير لتخزين الحبوب، ويستحسن أن تتوسط القصر لحمايتها وحراستها، القصور تشيد باللَّبِن، وهو الطوب الخشن المصنوع من التربة المجفف في الشمس، ويكون أقل صلادة من الصخر. بعض القصور جدرانها بداية ترفع بالصخر ثم تكمل بالطوب هندسة البناء هنا هي البناء المرصوص الذي يشد بعضه بعضا، لذلك تجده قوي متماسك الجوانب، الحدائق والبساتين، تحاط بالجدران وتعلوها أبراج مراقبة، قصور الصحراء محاطة بخضرة دائمة، تأتيها من كثرة النخيل هذا النخل يرتفع عن الأرض بين 20 و 30 مترا إلى جانب النخل، تجد الأشجار المثمرة كأشجار الكمثرى واللوز هي تشبه أشجارنا المثمرة في فرنسا، بل تجد حقول الذرة، وهي منتشرة بكثرة، وحقول أخرى مخصصة للخضروات بأنواعها.

موسم الحصاد في الصحراء متقدم عن التل، هو واقع شهر ماي، وهذا يعطي للصحراء أفضلية اقتصادية، هذا التقدم يوقع حرابا اقتصادية بين الطرفين تعرفها الأسواق، موسم الحصاد بالكاد يبدأ شهر جوان، ولا تبدأ تجارة القمح عندهم إلا نهاية شهر جويلية. شهر جوان يتدافع سكان الصحراء ناحية التل، لحيازة القمح وهو لم يحمل بعد، هذا التواعد بين أهل التل والصحراء تحكمه قواعد منها، أن أهل الصحراء يساعدون في عمليات الحصاد، هذا الفعل يزرع ثقة متبادلة، ويأمن الناس بعضهم

البعض. العرف عند أهل التل أن يأتي أهل الصحراء هم وقطعانهم صيفا ويحطوا رحالهم، بشرط أن يبتعدوا عنه المناطق المزروعة قمحا، والتي يفترض أن آن حصادها، هذا لا يعني أن الأمور هي هكذا أمن وأمان، قد يقع التخاصم والتنازع وأحيانا يشتد، حتى القبائل الصحراوية الساكنة جنوب غرب وهران، يضطرون فيشترون حاجتهم من الحبوب من المغرب. الشهر الذي يقلقنا نحن الفرنسيون هو شهر جوان، أين يكتمل الحصاد وترفع الغلات، هنا يفكر العرب في التمرد وإعلان الثورة، تمردهم وثورتهم يقع عادة شهر أوت، الأمر نفسه يقع في منطقة القبائل، إلا أن شهر التمرد عندهم هو شهر أكتوبر، ويكون بعد جني التين.

قبائل الصحراء لا تتمرد ولا تعلن الثورة شهر أوت في هذا الزمن،، إما أن تكون سندا لأهل التل في تمردهم، أو أنها تخفي سر التمرد وتنتظر نهاية الصيف، الحرارة تمنع حركة أهل الصحراء وتلزمهم مناطقهم في الصحراء والتل، ما ينتهي الصيف حتى تدق طبول الحرب، حتى أن القابعين في مناطقهم هم كذلك يعلنون التململ، ويظهرون الرغبة في العصيان، الحقيقة التي نعرفها أن الخضوع والاستسلام للحكم الفرنسي يضمنه القادة وكبراء التل، ومن لا يخضع ويستسلم من أهل الصحراء، كبراء التل يعاقبونه وذلك بالمنع من القدوم ناحية التل، والدخول للأسواق ومقايضة البضائع.

القبائل الأمازيغية خلاف العرب هم يسكنون المنازل، ولهم قطعان تجمع بين الغنم والماعز وتقل عندهم الأكباش ذات القرون، يمتلكون البغال والحمير، وتقل عندهم الخيول ولا جمال عندهم ـ عرب التل هم بالطبيعة رحل إلا أنهم لا يبتعدون كثيرا عن صوامع غلالهم يملكون الماشية والخيول والبغال وقليل من الجمال ـ قبائل الصحراء الصغيرة لا يتركون المرعي الخصبة الواقعة بين جبل العمور والأطلس، هم لا يبتعدون عن مراكز سكناهم إلا بمسافة بين 73 كيلومتر و 97 كيلومتر. قلنا أنهم يمتلكون الكثير من الماشية والجمال والخيول، وكذلك البغال ـ لا يوجد البقر إلا في مناطق الأطلس وجبل العمور وجبل السحاري، وبعض الجبال الأخرى، وينعدم في مناطق وادي مزي ـ القبائل الساكنة شمال الصحراء الكبرى يحتاجون لمساحات شاسعة، لأن مراعيهم فقيرة ولا تسد حاجة قطعانهم، هذا يضطرهم للحركة والتنقل المستمر، قطعانهم متنوعة هم يمتلكون الماشية والجمال والخيول، ولا يوجد عندهم بغال ـ القبائل التي بسكن جنوب قصور بني ميزاب ماؤهم قليل ومراعيهم أكثر فقرا، هم كذلك يمتلكون الماشية، إلا أن الجمال عندهم أكثر ويستبدلون الخيول بالمهارى هي جمال تسعفهم في التنقل والترحال

وحمل بضائعهم وحاجاتهم اليومية، تستطيع المهارى أن تقطع مسافة 241,402 كيلومتر يوميا بل منها من يقطع يوميا مسافة 386,243 كيلومتر يوميا، المهارى طعامها نوى التمر وبعض صنوف التمر وأنواع من العشب، أيام الغزو والحرب المهارى الواحدة يركبها إثنان، هذه القبائل تمتهن التجارة ومنها من يمتهن اللصوصية، وقطع الطريق مع العلم، أن لكل قبيلة طرقها ومسالكها الخاصة بها.

خيول الصحراء الكبرى يشربون أحيانا الحليب، ويمنح لهم كعلف الشعير القليل، وبعض الأحيان يتم تغذيتهم بأصناف خاصة من التمور، وبعض الخيول يستفاد من لحومها الخيول الجيدة الممتازة تغذى بالتمر والحليب، هذا يعطيها رشاقة خاصة وقوة وجلد، وتكون سريعة وتقطع المسافات الطويلة، وأحسن السلالات هي خيول أولاد سيدي الشيخ مناطقهم جنوب غرب جبل العمور.

العمليات القتالية والغزو تسيرها القصور، لكل قصر له فرسانه كذلك الأمر عند قبائل الصحراء الشمالية، هم كذلك لهم فرسانهم يركبون الخيول، أما قبائل جنوب الصحراء هم يركبون المهارى للغزو والحرب، قلنا أن المهارى تقطع في اليوم الواحد مسافة بين 241,402 كيلومتر و 386,243 كيلومتر في حين أن الفرسان العاديون وهم يمتطون خيولهم يقطعون مسافة ما بين 144,841 كيلومتر و 193,121 كيلومتر، وهذا يوضح الفرق بينهما الفرسان النظاميون في 6 أيام ذهابا و إيابا يقطعون مسافة 193,121 كيلومتر يقطع الفرسان في 6 أيام ذهابا وإيابا مسافة 482,803 كيلومتر، المهارى يختلف أمرها ذهابا وإيابا تقطع مسافة 869,046 كيلومتر، هذا يظهر لنا مدى قيمة المهارى في الحرب والسلم، وهي تتفوق على أحسن الجياد.

أيام السلم والعافية تواجد أهل الصحراء في التل من الأمور الاعتيادية، وتجد قطعان الصحراء في التل العشب الرطب وكذلك اليابس، ومع ذلك يحافظ أهل الصحراء على نظامهم الغذائي، هم لا يستبدلون الخبز بالتمر، أيام الجفاف والقحط كل قبائل الصحراء يرحلون ناحية التل، والبعض يذهب ناحية جبل العمور وجبل السحاري، ومن لم يستطع يرحل ويسكن الصحراء الصغرى الشمالية، ويقاسمون ساكني الواحات حياتهم ويشاركونهم أعمالهم. الصيف وارتفاع الحرارة يفتك بالحيوانات، وتصاب المواشي وتهلك ويعاني أهل الصحراء، لما يفسد موسم التمر هنا يحتاج أهل الصحراء الحبوب، ولا سبيل لهم إلا التل لجلبها، ويجلبون من الشمال البضائع من أهمها السكر والقهوة

والمعادن كالحديد وغيرها كثير، تبقى الأسواق هي محل التبادل، ويعتقد أهل الصحراء أن التل هو موطن المال والرخاء، التل يكثر فيه الرخاء وكذلك تكثر المدن وتتعدد المنافع، ومع ذلك أكثر شعوب التل هم منبوذون، لأن مالكي الثروة في التل هم أقلية، الشرف والمكانة وعلو المراتب تجدها في الصحراء، وأهلها هم الأحرار، ومصدر ذلك أن القبائل اليمنية سكنت الصحراء، هذه القبائل حافظت على عاداتها الأولى، التي جلبتها معها لما حلت في الشمال الإفريقي، ما بقي من العادات الأولى المحافظة على أهل الرتب من الشيوخ والكبراء، والكثير منهم حافظ على نسبه، وحافظ على سلاسل أجداده، العرب في التل لما دخلوا المدن وسكنوها، وتركوا خيمهم فقدوا أهميتهم ومكانتهم الاجتماعية، لما فقدوها تغلبت عليهم العصبيات الأخرى و من أهمها عصبية منطقة القبائل1.

المسافة من البحر حتى ضفاف وادي مزي تسودها كثافة سكانية كبيرة، وما يدل على ذلك كثرة المباني الأثرية المتناثرة، والتي تصل حتى واد الحَمَّار. جبل العمور وجبل السحاري مناطق عامرة بالقرى المسكونة، هي أكثر من مناطق الأطلس التي يسكنها العرب، المناطق المأهولة والقرى والدواوير يسهل التحكم فيها، وتفسير ذلك أنهم يُعرفون بمساكنهم وتجمعاتهم، ولما يبتعدوا لا يذهبوا بعيدا، تستطيع الفرق العسكرية أن تحاصرهم وتطاردهم دون مشقة تذكر. ما بعد واد مزي تجد الفرق العسكرية التعب والمشقة في الحصار والمطاردة، وتكون العمليات العسكرية مكلفة وشاقة، الأرض شاسعة والماء قليل والكلأ نادر، والعمليات تجري بعيدا عن مراكز القيادة الأساسية، لأجل ذلك إخضاع قبائل الصحراء من المستحيلات السبع، هم يرحلون وينتقلون دون حسيب ولا رقيب، وهم يحتاجون لأنظمة عسكرية خاصة، تخضعهم وتجعلهم يستسلمون.

[1] القصور سكنها الأمازيغ والبادية سكنها العرب هذا عقد اجتماعي تعايش به المغرب الاسلامي لذلك دخول العرب القصور والسكن فيها يُعتبر خيانة لأن تخلي البدوي عن خيمته إهانة له ولقومه.

وصف قصر الأغواط وتاريخه

القصور هي التي تزين الصحراء الكبرى، كل قصر هو جمهورية صغيرة، يمارس وظائفه التجارية وكذلك الزراعية، القصر يجمع بين جدرانه الأحداث السياسية الواقعة خارجه ويتفاعل معها، وكل قصر في الصحراء يثبت وجوده، لما يتفاعل مع الأحداث السياسية ويكون مشاركا فيها، وبين الفينة والأخرى يعلن الحرب على الخصوم. هم في الحروب أشداء شرسين متمرسين على خوض الحروب شجعان لا يخافون، يديرون الحروب بذكاء لا يتهورون يتحركون بسرعة، يتفاخرون بينهم بالحروب التي خاضوها وحسموها لأنفسهم، هم في حياتهم اليومية كحياة الإيطاليين أيام القرون الوسطى، يتنازعون السلطة، ويقتتلون بينهم لسبب أو لغيره، نحن هنا نتكلم عن قصر الأغواط و تاجموت و عين ماضي و الحويطة و العسافية و قصر الحيران و عين ماضي، هذه القصور التي زرناها ورفعنا تقاريرها.

مدينة الأغواط عاصمة الصحراء دون منازع، المدينة بنيت على منحدرات وسفوح الشمالية والجنوبية للجبل1، وهي تقع شرق مصب وادي مزي، المدينة محصنة ببرجين قويين مرتفعين على أعلى نقاط الجبل، هما لا تنفصلا عن الأسوار، ترى في مدينة الأغواط مجرى مائي2، يغذي الحدائق والبساتين برسم صورة طبيعية غناء، هو فرع صغير من وادي مزي، الحدائق والبساتين تعانق المدينة من ناحية الشمال والجنوب على السواء، من لا يعرف المدينة يرى غابتين متلاحمتين، تمتد على طول مقداره 3000 مترا. ما تقترب من الغابة حتى تكتشف واحة نخل عظيمة، نخيلها سامقة تعانق السحاب، من يقف فيها تظله الظلال وتغطيه الغابة، تمد الأهالي بالتمر الجيد الوفير و عسل النخل الكثير، هو ماء النخل يسميه الأهالي اللاقمي، طعمه حلو إذا بقي يأخذ طبيعة كحولية وفي النهاية يتحول إلى خل، جريد النخل تصنع منه ضفائر، و عقد تصنع بها القبعات الواقية من الحر، وكذلك الأواني المنزلية، ومن الجريد من يدخل في عملية البناء ويستفاد من خشب النخل حيث هو دعائم

[1] يقصد جبل تيزغرارين العظيم الذي ترفع عليه المدينة وهو سر وجودها وتاريخها منذ أبد الآبدين والله المعز يعز من يشاء.

[2] المجرى هو فرع من وادي مزي يغذي المدينة يسميه الأهالي وادي الخير.

ترفع بها الأسطح. إذا دخلت بساتين الأغواط ستنبهر وأنت تشاهد أشجار الفاكهة[1] الآتية: أشجار التين، الخوخ، البرقوق، المشمش، الكرمة، اللوز، التوت، أشجار الموز بأعداد كبيرة جدًا، الخضار متنوعة للغاية واحة النخل والبساتين جعلت الساكنة أغنياء لهم ثروات عظيمة[2]. هذه الثروات هي سبب ضعفهم، لأنها منعتهم من الخضوع لنا، لأنهم أغنياء و أقوياء ولهم سيادة ولا يحتاجون لغيرهم تجد في الأغواط ثمانية عشرة فرقة، كل فرقة لها الحق في الماء ليوم واحد، وكل فرقة يتقاسم أفرادها الماء بالعدل، تُحسب الضرائب داخل المدينة مع ما يتناسب مع حصص الماء، كلما زادت الحصة كانت الضريبة أكثر، في المدينة أربعة مساجد[3] و فندق يأوي له الغريب وعابر السبيل، لا يوجد هناك حمام[4] عدد المقاتلين النظامين داخل المدينة حسب المقتضيات هم 500 مقاتل مشاة، عامل وعشرات من قوة الفرسان النظامية، وعدد الساكنة بين 5000 و 6000 نسمة.

مدينة الأغواط مدينة عريقة ولها تاريخ قديم، يعود للحقب الأولى والأزمنة المتقدمة تحررت منذ القدم من سلطان المغرب، وتحالفت مع الحكم التركي وناصرته لمدة تزيد عن 150 سنة. حكمها باي وهران

---

[1] تعالى وأنظر الآن هي الأطلال ويحق القول في مدينة الأغواط ما بقي من الأغواط إلا أحجارها هلك الزرع وجف الضرع والله مغير الأحوال من حال إلى حال.

[2] ثروة المجاهد يحيى بن معمر لما حازتها فرنسا تعادل اليوم ميزانية دولة ذهب وفضة وأملاك منقولة ومحمولة لا تقدر تركها وأعلن الجهاد رحمه الله.

[3] أزالتها فرنسا ما بقي إلا المسجد العتيق أجملها مسجد له منارة عالية بيضاء هو مسجد بن بوطة يوم اقتحام مدينة الأغواط تكفل بالدفاع عنه أهل الأغواط ذوي البشرة السوداء أصهار السيد أحمد التجاني و مات خلق كثير دونه راجع كتاب: Souvenirs d'un officier du 2' de zouaves, p. 39 à 48.

[4] بل يوجد حمام وسط ساحة المدينة وهو القريب من المحكمة القديمة وموجود لغاية الآن أما الحمام الموجود في الضلعة هو بيت أحمد بن سالم رحمه الله راجع كتاب تاريخ الأغواط لمؤلفه أ . مونجان ترجمة كزواي الحاج العرابي.

ثم حكمها باي المدية، وقبل السقوط كانت تحت حكم أغا الجزائر العاصمة، تدفع للحكم التركي ضريبة زهيدة لا تذكر، عرفت المدينة مرات تمرد على الحكم العثماني1.

مدينة الأغواط في تاريخها كانت مستقلة ذاتيا، تحكم نفسها بنفسها، وهذا لم تنفرد به المدينة هو عرف سائد في مدن الصحراء، يتولى السلطة جماعة تدير النظام السياسي والاجتماعي ،وتشرف على الفعل الاقتصادي وتنظمه في المدينة. عائلات تتنافس السلطة هي عائلة أبناء الولي الحاج عيسى، وأولاد زعنون، وأولاد سيرغين، تقع بينهم فتن داخلية المؤامرات تحاك خارج المدينة، وتأتي عادة من المغرب، والجزائر، والمدية ووهران، هذا التآمر أجج الفتن الداخلية من أجل ذلك أولاد سيرغين أحكموا السيطرة على القلعة الواقعة ناحية الغرب، حي أولاد سيرغين هدته الفتن ومصدر ذلك، أن أولاد زعنون واجهوا الحي، الحد الذي يفصل بين الحيين هو المجرى المائي الذي يخترق المدينة وتمر الأيام الطويلة، ولا يسمع للبنادق صوتا، أضف لذلك أن أولياء الله الصالحين هم موجودون جنوب المدينة.

منذ سبعين سنة ابن سالم والد الخليفة أحمد بن سالم و قايد أولاد زعنون، طلب مرتين تدخل الباي مُحَمَّد الكبير باي وهران2، الباي يمتلك حامية عسكرية قوية، جاء لمدينة الأغواط وفرض ضريبة على

---

[1] لتتعرف على العصيان الذي عرفته الأغواط وعين ماضي وزنينه على الحكم العثماني والسياسة الرشيدة التي اعتمدها بايات الدولة العثمانية للرد على التمدّد الماسوني راجع رحلة ابن هطال التلمساني.

[2] الباي مُحَمَّد بن عثمان بن إبراهيم الكردي أو الباي مُحَمَّد الكبير المجاهد البطل ناصر الإسلام والمسلمين هازم الصليبيين ناصر المؤمنين واجه بحكمة الفتن التي نشرها التحالف الماسوني الصليبي في الأغواط و عين ماضي طلب منه أهل الأغواط الحضور للوقوف ضد المخربين أتقن اللغة الفرنسية والايطالية راجع سيرته العظيمة وحياته الزكية رحلة الباي الكبير ابن هطال التلمساني راجع كذلك رسالة ماستر اعداد الطالبتين صبرينة أمير و حورية زاير عنوان الرسالة المشروع الجهادي للباي مُحَمَّد الكبير في تحرير وهران 1792 ميلادية اخترتها دون المراجع لبساطتها وهي موثقة علميا موجودة على المواقع.

أولاد سيرغين وطردهم عقوبة لهم، هؤلاء يأتيهم التأييد من قِبل من يدعي أنهم أولياء الله، رغم ذلك ومع انتهاء حملات الباي يعودون للحكم، هذا سجال بينهم وبين خصومهم. استطاعت عائلة بن سالم أن تحسم السلطة، لما قام أولاد زعنون وقتلوا لخضر قايد أولاد سيرغين من يومها مسك أحمد بن سالم حكم المدينة، حتى جاء الأمير عبد القادر ليفرض سلطته1.

لما أراد الأمير عبد القادر أن يخضع الأغواط ومناطقها لسلطته، ويحارب السلطة القائمة الممثلة في حكم أحمد بن سالم، مد يد العون لغريمه سي العربي حفيد الولي الحاج عيسى رغم ضعفه وقلة حيلته في المدينة، هذا الرجل له رغبة جامحة أن يحكم المدينة ويخضعها لسلطته، لقيت دعوته معارضة من الفارين من عين ماضي. سي العربي ترك الأغواط وذهب إلى قبائل هاشم قرب معسكر، وبدأ يقطع الطريق على قوافل بني لغواط، ثم وسع عمله ليشمل كل القوافل التابعة لقصر الأغواط، وكذلك القبائل التابعة له، لا يعيد لهم قوافلهم لما يعلنوا الطاعة له. الأمير لم يكن يمتلك القوة التي نمتلكها نحن الفرنسيون ليجتاح الأغواط و قصورها، لذلك بث في الناس أن دعوته هي الرفع من شأن أهل الشرف ومن أجل ذلك، عين سي العربي لأن جده الحاج عيسى يحمل صفة الشرف وحتى يبسط سيادته مدّه بكتيبة مشاة وقطعة مدفعية.

سي العربي له أنصار داخل الأغواط، يدعونه للحضور ويحذرون من هيمنة قادمة لأنصار الخليفة التجاني2، وحتى لا تتفاقم الأمور كتب سي العربي رسالة للأمير، يخبره المستجدات. جمع الحاج العربي قوته في الصحراء الصغرى الموجودة في تاجموت، وبدأ التحضير لمهاجمة مدينة الأغواط، أحمد بن سالم واجه الهجوم ودخل في معركة مع جيش الحاج العربي، إلا أن أحمد بن سالم وقومه أولاد

---

[1] جعل الأمير أحد أحفاد الحاج عيسى و هو سي العربي خليفة بعد حصار الأمير لعين ماضي إلا أن بني لغواط حسموا المعركة لصالحهم، قتلوا خليفة الأمير قرب قصر الحيران لينتهي مشروعه للأبد.

[2] الكاتب يقصد الحلف الذي جمع مُحَمَّد الكبير التجاني وأحمد بن سالم لتشكيل جبهة واحدة لطرد الأمير وهذا جاء كنتيجة لما يعرف في التاريخ بحصار عين ماضي راجع بالتفصيل حصار عين ماضي تاريخ عين ماضي.

زعنون هزموا، وفروا ناحية بني يزقن في بلاد ميزاب، كانت فرصة لكي يستعد أحمد بن سالم و يحضر لمعركته القادمة على عجل أرسل أحمد بن سالم أخوه يحيى بن معمر، ليدافع عن قصر عين ماضي ضد هجوم الأمير ويسند الخليفة التجاني في حربه غير المتكافئة، أرسل مع أخيه يحيى مئات من المقاتلين من بني لغواط، إلا أن الأمير قدم عرضا سياسيا، وعد يحيى أن يتولى أحمد بن سالم حكم مدينة الأغواط، وأنه سيعزل خليفته الحاج العربي.

الأمير عبد القادر حتى يرفع الحرج عن نفسه، عين خليفة له على الأغواط من خارج المدينة، اختار لهذه المهمة رجلا يسمى سي عبد الباقي، رجل معروف في منطقة تَكْدامِتْ، وأرسله مع قوة ليدخل المدينة ويحكمها كلها.

دخل سي عبد الباقي هو وقوته المدينة دون مشاكل تذكر، ونشر جنوده بين السكان ولم يعترض عليه ولم يقاومه أحد، ما أنهى مهمته حتى أرسل رسالة للأمير في المدية يخبره خبره وما حقق، جاءه الرد من الأمير هكذا: « أمسك كبراء وقادة المدينة أقتلهم أو أرسلهم إلى تَكْدامِتْ، حطم المدينة وقم بتجريف البساتين، وجعل تاجموت مقرا لإقامتك1. »

عبد الباقي لم يكون وحيدا، خارج المدينة الأغا جديد والأغا خروبي، حضروا هم وداورهم الكثيرة يعسكرون ينتظرون أوامر عبد الباقي لدخول المدينة، ما جاء المساء ورغم علمهم بالوضع، استطاع سي عبد الباقي أسر و إحضار أحمد بن سالم، ويحيى بن سالم وكبراء المدينة مقيدين بالحديد، وكل واحد منهم لفقت له تهمة تبرر اعتقاله.

لما علم السكان الغدر الذي لحقهم من قبل عبد الباقي، قامت ضجة ورجة كبيرة في المدينة، هاجم الفرسان جنود عبد الباقي، وكانوا مشتتين وهزموهم. تمكنت مجموعة قليلة من الهرب لما استعانت بالواحة والبساتين، أعانها على التسلل والخروج الحاج العربي خليفة الأمير السابق، الباقي هرب أو

---

[1] هذه المهمة هي مشروع قديم سيتحقق يوم 4 ديسمبر 1852 ميلادية لما حشد التحالف الماسوني قوته واستعان بالقادة الفرنسيين لإدارة اقتحام مدينة الأغواط راجع تاريخ بني لقواط.

قتل وأُسر بعضهم، وجردوهم من السلاح، مات سبعة وعشرون من بني لغواط في هذه المعركة الخاطفة، هاجم الفرسان بيت عبد الباقي وأطلقوا سراح المساجين، وتم تجريده من ممتلكاته هو وقادته، وما أنقذه من موت محقق إلا تدخل أحمد بن سالم وعفى عنه، وتم سليم عبد الباقي والقادة للأغا الخروبي والجديد وتم تحصيل غنائم وفيرة ومن أهمها قطعة مدفعية.

سنة 1839 ميلادية زاد القلق عند الأمير عبد القادر من نوايا فرنسا لخوض معارك جديدة، وحتى يتجاوز ما لحقه من الاهانة، لم يكن بإمكانه تعين أحمد بن سالم، ولا تعيين خليفة آخر من التل كما فعل مع عبد الباقي، وجد أن الرأي الأصوب هو إعادة تعيين الحاج العربي، رغم ضعفه له قوة و إن كانت قليلة تسنده داخل المدينة، وإن لم يستطع الظفر بالحكم، يكفيه أن يكون ندا لأحمد بن سالم يحجم قوته ويقلل من نفوذه.

لما عُزل الحاج العربي وتم استبداله بعبد الباقي، استقر في قصر سيدي بوزيد، منحه الأمير 300 من الجنود النظامية، وأضاف لهم الأنصار من الصحراء الصغرى، في كل الأحوال هي قوة ضعيفة لا تستطيع اقتحام الأغواط والسيطرة عليها، وحتى يخدم الأمير قرر أن يتجه ناحية قصر عين ماضي ويحتلها، مع العلم أن أسوارها وجدرانها ما زالت محطمة بفعل حصار وهجوم الأمير عليها، وأن طرد الخليفة التجاني وانهاء حكمه، أمر يثلج صدر الأمير، وان احتلال عين ماضي إن وقع ينفي الحلف القائم بين الخليفة التجاني وأحمد بن سالم، ويفتح الطريق للمعارضين في الأغواط و القصور الأخرى، أن يظهروا ويعلنوا التمرد. قبل أن يصل الحاج العربي إلى قصر عين ماضي، كان عليه أن يخضع قصر تاجموت لسلطته أولا، وصل تاجموت وأخضعها، ثم تحرك ناحية عين ماضي في الطريق وجد في انتظاره أحمد بن سالم والخليفة التجاني، ودارت بينهما معركة بداية اليوم استطاع الحاج العربي أن يظهر على أعدائه، إلا أن الأمر لم يتم مع نهاية اليوم، هُزم وهرب الحاج العربي ومن بقي من جنده إلى قصر تاجموت. أحمد بن سالم رجع إلى الأغواط في المدينة سمع أن الأمير عبد القادر دخل في معارك مع فرنسا، فوجدها فرصة لاستعادة تاجموت. وصل أحمد بن سالم تاجموت، قتل من جند الحاج العربي ما يقارب الخمسين من جنود وأنصار، الحاج العربي فر إلى قصر العسافية، ما وصلها حتى هاجم حي بني لغواط أنصار أحمد بن سالم، وطردهم من الحي وهد المباني.

لم يستطع الأمير عبد القادر أن يواجه كل هذه التغيرات، لأن وضعه العسكري أخذ في التأزم وهو يواجه الفرنسيين، ولأنه في حاجة ماسة للجند سحب من خليفته الحاج العربي حاميته العسكرية رغم قلتها، وأعطى الأوامر لخليفته أن يقتل من يجده من أهل الأغواط، وأن يسلب قبائلهم.

أحمد بن سالم لم ينتظر، هاجم الحاج العربي في العسافية، الحاج العربي لم يجد مفرا إلا الهروب إلى قصر الحيران، ما وصل القصر احتل أحد الأحياء هو وما تبقى من جنده وجعله حامية له، هذا الوجود أحدث فتنة داخل القصر بين السكان، منهم من قرر أن يهاجم الحاج العربي ويطرده، وبقي الوضع هكذا يراوح مكانه. توسع الخلاف خارج القصر وانقسم الناس، منهم من يريد الانتقام ومنهم من يرفض ذلك مع بداية سنة 1842 ميلادية، عرف أحمد بن سالم أن الأمير هُزم في كل معاركه1 وأنه الآن لا حول له ولا قوة، بن سالم جمع جمعه وسار ناحية قصر الحيران، ليخرج الرجل البائس الحاج العربي منها، معركة الحسم لم تكن سهلة للحاج العربي هي مسألة حياة أو موت، دامت المعركة ثلاثة أيام، حاول أن يدافع عن المنازل التي حازها، وانتهت مقاومته بالهزيمة، وبعد ذلك تمت تصفيته، تم أسر كبار رجاله منهم من قتل ومنهم من سُرح، راية الحاج العربي اعتبرها أحمد بن سالم غنيمة نفيسة وحافظ عليها، وقدمها لي كهدية وهي مدرجة مع وثائق البعثة.

لما عاد أحمد بن سالم إلى الأغواط، طرد أنصار الحاج العربي من المدينة، وعادت السلطة كاملة لأولاد زعنون، بعد هذا الحسم أضحى أحمد بن سالم سلطان الأغواط وخليفتها دون منازع، متفرد في سلطته السياسية. هذه السلطة المطلقة شاهدتها بنفسي، لما وصلت قافلتنا نواحي أولاد نايل قريبا من الأغواط شهر أفريل، كيف أن خضوع بن سالم للسلطة الفرنسية، شجع المترددين على القبول بسياسة الأمر الواقع والخضوع لفرنسا، لما دخلت الأغواط شاهدت أولاد سيرغين، وعائلة الولي الحاج عيسى خانعين، ولا واحد منهم تشجع وقدم شكوى أو التماس. أنا لا أنكر قوة هذا الرجل نفس

[1] الأمير رجل شعر وفلسفة وتصوف لا علم له لا بالسياسة ولا الحرب وكانت آخر أيامه أنه وصل سيدي مخلوف يطلب النصرة، ثم انسحب إلى الشمال ليسلم نفسه للفرنسيين. راجع تاريخ بني لقواط للتعرف عن حياته وحياة سي الشريف بالحرش وأدوارهما.

عظيمة وشخصية لا تقدر بثمن، هو لخص حياة هذه العائلة العريقة في السياسة والدهاء عائلة حكمت الأغواط لأكثر من ثلاثة قرون سيكون حظنا عظيما، لو استدرجنا عائلة بن سالم لتخدم مشروعنا.

تاجموت[1]: تم بناء هذا القصر في الأزمنة القديمة، بعدما عرف حروبا داخلية، هو قصر منظم ومرتب وتجد به بساتين هي كذلك جميلة ومرتبة، لما دخلناها وجدنا أغلب المباني محطمة، تحطمت بسبب الحروب التي دامت لأكثر من ثلاث سنين هي تحتاج وقت للراحة، حتى ترفع المباني من جديد أحصينا فيها 120 بندقية صالحة، والباقي غير مناسب.

الحويطة: قصر أصغر من تاجموت أحصينا بها 50 بندقية، وقعت في فتنة لما انقسم ساكنيها إلى حزبين حزب مع أحمد بن سالم وحزب مع خصومه، كل حزب سعى في إلغاء خصمه، القصر ملحقة تابعة لمدينة الأغواط، وهي موقع متقدم ناحية الغرب، قصر الحويطة بني فوق مرتفع مطل على واد، شاهدت عينا جارية تسقي البساتين، وتضيع مياهها المتبقية في الرمال.

العسافية: قصر السعادة والسبب أته واقع قرب عين ماء جارية، هو قصر قديم دخل في حروب عديدة مع قصر الأغواط، له تاريخ قديم حسب الذاكرة الشفوية للأهالي. أهل الأغواط عرضوا مبلغا معتبرا للولي الحاج عيسى من أجل، أن يدعو على أهل العسافية بالدمار الولي وافق، الله استجاب لدعوته، أصاب العسافية عاصفة البرد[2] بشكل غير عادي، كانت السبب في دمارها، أهل العسافية يبنون دورهم باللَّبن يُصنع من الطين ويجفف في الشمس. حقق أهل الأغواط غايتهم ودُمرت العسافية، ولما طالب الحاج عيسى بحقه، ما طلوه ثم تنكروا له، غضب من فعلهم هذا وجاءت دعوته

[1] قصر تاجموت تاريخ يعود للأزمنة الأولى ويمر بالتاريخ الأمازيغي العظيم نذكر هنا قبيلة زناتة وفرعها مغراوة و فرعها سنجاس وفرسان الفتح عاصرت الفتح الإسلامي العظيم وكانت حلقة وصل بين الشرق والغرب راجع تاريخ القبيلة الأمازيغية مغراوة تاريخ بني لقواط.

[2] عاصفة البرد هي نوع من العواصف تسقط فيها كرات صغيرة أو كبيرة من الثلج تسمى حبات البرد.

على أهل الأغواط على شكل نبوءات، هي لعنة ستلحقهم وأنهم سيمزقون وكلمتهم لن تجتمع أبدا1. لما علم أهل العسافية غضبه طلبوا نصرته وحمايته، طلب منهم أن يعودوا لقصرهم ويعيدون بنائه، وأن يجعلوه أبعد قليلا عن القصر الأول، هذا ما فعلوه. للأسف هذا البناء الجديد نصفه تحطم بالكامل، لما هرب إليه الحاج العربي، وجعله حماية له ولجنوده هذا وقع منذ سنتين، النصف الباقي تحطم لما هاجم أحمد بن سالم الحاج العربي وطرده ما رأيناه الآن ووجدناه قصر صغير بالكاد يُرى يملك أهله بين 40 و 50 بندقية، ورأينا قربه قصر يشبهه وأكبر منه هو كذلك محطم، لا حياة فيه محاط ببساتين مسقية وشاهدت كذلك حقول قمح مسقية، وعين ماء جارية ما تبتعد قليلا، حتى ينساب ماؤها في الرمال.

قصر الحيران: قصر بُني منذ أربعين سنة من قبل أحمد بن سالم2، تسكنه فرقة من قبيلة رحمان، هذه الفرقة تسكن التل، إلا أنها آثرت العودة والاندماج من جديد في حياة البداوة، وهي من أعطت لمدينة الأغواط القادة3. هذا القصر لا توجد به عيون ماء سكانه يستعينون بالآبار، ماؤها ليس بالعذب، تُشرب ويستهلك أيام الجفاف، الأيام العادية السكان يجلبون الماء العذب من مجاري وادي مزي، مع نهاية قصر الحيران يستعيد واد مزي اسمه الأول و هو واد الجدي. سلطان الأغواط أمر ببنائه لغاية دفاعية، فهو يوقف زحف القبائل التي تريد الاستيطان وتغزو الأغواط من الناحية الشرقية، وتريد أن يكون لها موقع قدم شرق الأغواط. قريبا من قصر الحيران توجد محلات معروضة للكراء، وأثمان الكراء ليست بالقليلة، مع ذلك هذا القصر ليس هو بالكبير، سنة 1842 ميلادية

---

1 هذا كلام الذاكرة الشعبية الداخل في الحرب النفسية الأمر أكبر من ذلك قبل أن يبشر بدخول فرنسا لو تنبأ بهزائم فرنسا أمام بروسيا وهزيمتها في الحرب العالمية الأولى وأن هتلر سيحتل عاصمتها وهزيمتها في فيتنام وهلم جرا.

[2] الكاتب أخطأ من أمر ببنائه السايح بن زعنون عم أحمد بن سالم سلطان الأغواط الكاتب يشير لتأسيس الأرباع والانتقال من المرحلة الأمازيغية سكن القصور والانتقال إلى حياة البداوة الخيمة هو بحث علمي راجعه بالتفصيل تاريخ الأغواط أونجان ترجمة كزواي الحاج العربي.

[3] قبائل الأرباع قبائل مقاتلة نذكر هنا من باب التدليل فرقة النويرات من رحمان هي من تحسم كل المعارك ولها تاريخ كبير في الجهاد والمقاومة راجع تاريخ الأغواط.

حُطم ثلثه في المعارك التي دارت بين أحمد بن سالم والحاج العربي. ما هو موجود الآن من البنادق هو 150 بندقية، المنازل في هذا القصر لها أفنية كبيرة، وكل فناء به صوامع حافظة للقمح لها جدر مرتفعة، السكان يعتمدون في البناء اللَّبن المصنوع من الطين المجفف في الشمس، البساتين ضعيفة وسبب ضعفها أن الماء لا يدخلها و ليست محمية بالجدر، النخل قليل وحجمه صغير، هو يحاذي بعض حقول القمح.

عين ماضي: مدينة قديمة بنيت على هضبة، عند قدمها تجري عين ماء تسقي البساتين المحاذية للقصر القصر هو ملكية خاصة للعائلة التجانية، لا يسكنه الغرباء، عرف القداسة منذ أربعين سنة، وتحول من قصر عادي إلى ساحة معركة، لا ينكر قوتها أحد.

توجد بالقارة الافريقية طرق صوفية هي كثيرة، إلا أنها متماثلة في الصورة، متناقصة في الجوهر أُمثلها بالحركات الفكرية، التي عرفتها فرنسا قبل الثورة، الاختلافات بين الطرق الصوفية هي كثيرة يختلفون في نقاط كثيرة، رعايا هذه الطرق يفترض أن يتوحدوا ويأخذوا لهم طريق واحدة، إلا أن هذا هو خلاف الواقع، كل طريقة لها رعاياها، ولها طقوسها تميز بها نفسها عن الآخرين، الرعايا يمنحون الطريقة، التي يتبعونها قسطا من أموالهم، كل سنة[1] يرسلون قسما من أموالهم وأرزاقهم لشيوخ الطريقة، التي يتبعونها وينتظرون منهم الحماية والمشورة، وأنهم الضامنون لهم العيش الكريم في هذا العالم. ما هو معروف هنا في التل والصحراء، أن كل قبيلة لها ولي تعتز به، ولما يذكروه بينهم يقولون سيدي، هذا اللفظ كذلك يقال لمن يخدم السيد حيا وميتا ويقبلون أيديهم، الطريقة التجانية لها وجود كبير في الجزائر والمغرب وتونس، وأتباعها منتشرون في القارة الافريقية في كل هذه المناطق، التي ذكرناها في كل مدينة، للطريقة التجانية مدرسة وطلبة ووكلاء يمثلونها، هذا واقع قبل 1830 ميلادية. ميراث التجاني ينتقل من الأب إلى الأبناء، كما هو واقع مع العائلات المالكة، أين الحكم لا يخرج عن العائلة، هذا النظام الذي عملت به التجانية، هو نفسه النظام المعمول به مع الطرق الصوفية الأخرى في التل والصحراء، بعض الطرق الصوفية العاملة، لا تجيز الحاكم عليها، إلا بعد

[1] هذا القسم المبذول كل سنة للشيخ له مسميات من أهمها الزيارة وهي تقابل عند الشيعة المجوس خمس المكاسب.

إجازته من النظام الحاكم السياسي، هذا الحال غير موجود عند الطريقة التجانية. جعلوا لأنفسهم الحرية في اختيار من يتولى أمرهم بالوراثة، الخليفة التجاني له تأثير كبير على الأتباع لأنهم يتقاسمون نفس الذكر الصادر عن المؤسس الأول، هذا الذكر يوثق العلاقة ويدفع المريدين، ليدفعوا مخصصات للزاوية سنويا عائلة الخليفة التجاني هي من أنبل العائلات الدينية، وتعد من العائلات السبعة أو الثمانية الأكثر رقيا بين العائلات، التي يعرف أصحابها أنهم من الأولياء الصالحين في الشمال الافريقي سبب قوة الطريقة التجانية، هو كثرة الطلبة المنتمين لها وكثرة وكلاؤها في كل المناطق، قصر عين ماضي هو حامية عسكرية معد ليصد أي هجوم، يأتيه من الخارج.

حتى سنة 1790 ميلادية قصر عين ماضي، لا يختلف عن بقية القصور، هو صغير مشيد باللّبن جدرانه من الطوب في هذا الزمن، الوالد المؤسس أحضر من تونس مهندسا اسمه محمود وشيد أسوار القصر هي ترتفع 12 مترا، بنيت من الصخر المقطع المصقول، وجعل للمدافع مواقع خاصة على الجدر، هذه الأسوار هدها الأمير عبد القادر أيام حصاره للقصر. الخليفة الحالي ومنذ أربعة سنوات، يحاول أن يرفع هذه الأسوار والأمر لم ينتهي ومن المحتمل أن ينهي عمله، هذه السنة أو السنة القادمة، مخطط القصر هو ملحق بتقرير البعثة، قوة الخليفة التجاني تعرفها في قدرته على بناء قصره في سنوات معدودات، أعاد بناؤه بارتفاعات وعرض من النادر أن تراها في أبنية الصحراء، واختار له أفضل ما يمكن من المواد قل نظيرها، لما تقف أمام قصر عين ماضي، أنت ترى بناء ظاهرا يختلف عن كل البناءات، التي رأيتها من قبل في الصحراء.

أيام الحكم العثماني العائلة التجانية، تدفع ضريبة زهيدة للحكام الأتراك سنويا، إلا أن العائلة اعتبرت نفسها معنويا تابعة لسلطان المغرب، هذا أحرج حكام قصر عين ماضي وأحرج، كذلك من يحكمهم من الأتراك.

باي وهران مُحَمَّد الكبير جاء أول مرة ليسند الشيخ بن سالم، السيد أحمد التجاني رحب وأعلن احترامه لمحمد الكبير، الأمر اختلف مع رحلة مُحَمَّد الكبير الثانية، حيث لم يرحب التجاني بقدوم الباي، لما وقف خلاف بين رجل من عين ماضي وأحد جنود الباي في المعسكر، فأغلق التجاني أبواب قصره. الباي عاد إلى وهران وبعد ذلك عاد لعين ماضي، حاصرها وأسقط جدرانها، وحتى يتقدم

الباي ناحية القصر جعل في المقدمة الجمال، حتى يتحاشى بنادق المدافعين عن القصر استطاع جنود الباي تسلق الجدران ودخلوا القصر، وتم الاستحواذ على ما فيه. التجاني حاكم القصر هرب ناحية بوسمغون، أين كان له مريدين وأنصار، ثم أخذ طريقه ناحية فاس1، وقرر أن لا يعود لعين ماضي مخافة، أن يلحقه الأذى من الأتراك من أجل هذا السبب، قام محمود المهندس برفع الجدران والأسوار وعاد قصر عين ماض، ليستعيد وضعه الأول المتميز. أحمد التجاني توفي حوالي سنة 1819 ميلادية دون أن يغادر مدينة فاس، أولاده الاثنين عادا بعد وفاته وسكنا قصر عين ماضي، الأكبر امتلك شخصية طموحة، إلا أنه يفتقد الحكمة مسك الطريقة، وهو بالكاد تجاوز العشرين، أخذ النصائح السيئة من أولياء الله التابعين لعائلة الحاج عيسى2، قام بإعدام مقربين من عائلته، وأعلن العداء الصريح للأتراك. الداي حسين راسله ونصحه، الشاب المتأثر بالنصائح التي جاءته من أولياء الله الصالحين كابر وامتنع، سنة 1820 ميلادية الداي حسين أمر باي وهران حسان، وهو آخر بايات وهران، طلبه أن يأخذ عين ماضي، وأن يوقف الشاب، حملة باي وهران لم تنجح والسبب أن الناس التفوا حول الخليفة الشاب. خاض باي وهران معارك كثيرة لم تحسم الموقف، فجأة ظهر وباء وفتك بخلق كبير، تدخل الكبراء والحكماء وأوقفوا الحرب ووقعت معاهدة بين الأتراك والخليفة الشاب، انسحب الباي بعدما أخذ تعويضات كبيرة من عند الخليفة، الشاب لم يستفد مما وقع بل تمادى في طموحه، وظن نفسه منتصرا وكان لهذا الموقف نتائج سيئة ومدمرة.

---

[1] السيد أحمد التجاني ولد سنة 1737 ميلادية توفي سنة 1815 ميلادية ورحلة الباي تمت حوالي سنة 1785 ميلادية التجاني الذي ذكره الكاتب هو مؤسس الطريقة نفسه هذا الموقف المناصر للحكم العثماني تدعمه رسالة كتبها السيد أحمد التجاني لأهل عين ماضي يأمرهم بطاعة أولياء الأمر وعدم الخروج عنهم راجع حياة أحمد التجاني والرسالة تاريخ بني لقواط.

[22] مُحَّد الكبير شاب لا علم له ولا قدرة له على مواجهة صناديد المكر والخداع أدخلوه في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل وكانت السبب في عداء أقاربه محد الصغير الأخ سيكون أكثر حكمة ودراية.

لما هدأت الأوضاع قاد الشاب عمليتين عسكريتين ناحية التل، متحديا باي وهران والحكم التركي ولأن الشاب لا حكمة له في حملته الأولى، وقبل أن يصل التقى عصابة قطاع طرق تسمى الزوغدو[1] des Zeguedous هاجمت الشاب وسلبته ما يملك، بالكاد هرب الشاب وعاد إلى عين ماضي مصابا في عنقه. المرة الثانية أعلن التمرد مع قبائل من التل تسكن قرب معسكر، وحرر قلعة قريبة وأوهم نفسه أنه سيطرد الأتراك من وهران، قرر الباي أن يرسل قوة كبيرة لمواجهة هذا الشاب، الأغا مصطفى بن اسماعيل2 سيتحول إلى جنرال لما تدخل فرنسا، ويخدم تحت رايتها، فاوض سرا فرسان التل ليخذلوا الشاب ويسلموه، وتم التوافق على خطة لقتله هو وأصحابه، ما طلع الصبح على الشاب الصغير حتى رأى حلفاؤه من التل يتحولون مخازنية وحاصروه وقتلوه، هو وأتباعه الذين جاؤوا معه من الصحراء، وكانت الخسائر فادحة لا تقدر بعدد ولا بثمن3.

التجاني لم يكن كأقرانه الشباب افتقد رشاقة الفرسان هو يعاني السمنة، هذا أعاقه عن الهرب من المصيدة التي أوقعه فيها من أشار عليه، ومن استدعاه للقتال من أجل ذلك قُتل هو و 400 من رجاله، حُمل رأسه وعرض في الجزائر العاصمة. أخوه الأصغر منه تولى مهامه وأضحى الخليفة الجديد للقصر، لما تولى الحكم بلغ من العمر 35 سنة، رجل ضخم يعاني هو كذلك زيادة في الوزن، يكره الحرب محب للسلام يتجنب الازعاج والدته سيدة من أصول إفريقية بشرتها سمراء، مُحَمَّد الصغير رجل أسمر مطعم بصفرة خفيفة، كما يقول علماء الجمال نحاسي، بدأ حياته معترضا على الأفعال التي قام بها

[1] قبائل متمردة تمارس اللصوصية تسكن جنوب المغرب.

[2] مصطفى بن اسماعيل الجاسوس من عتاة أئمة الماسونية، وضع شبكة عملاء في القطر الجزائري للتحضير لاستقبال فرنسا، يذكر مؤلف الكتاب كيف أن بعض أبناء الحاج عيسى أقنعوا مُحَمَّد الكبير التجاني بالخروج عن الحكم العثماني وكيف أن هذا الجاسوس مصطفى بن اسماعيل خطط للغدر به، وهذا الجاسوس اقترحه والد الأمير عبد القادر محيي الدين ليكون اماما للجهاد إلا أنه رفض. التعرف على هذا الجاسوس الذي حشد قبائل الغرب لتحارب مع فرنسا، هو وسي حمزة وسي الشريف وغيرهم جعلوا احتلال الجزائر ميسرا، هلك مصطفى بن اسماعيل في حروب الأمير عبد القادر.

[3] التحالف الماسوني استعان بالصليبيين للقضاء على الطريقة التجانية الأغا مصطفى بن اسماعيل من أئمتهم.

مُحَمَّد الكبير أخوه المقتول، نظريته في الحياة أن قصر عين ماضي له وظيفة دينية لا عسكرية وأن لا دخل للخليفة التجاني في المسائل السياسية، ما سنحت الظروف بذلك.

لما عين الأمير عبد القادر خليفته الحاج العربي على الأغواط، أراد أن يجعل قصر عين ماضي حامية عسكرية له، ليفضي شرعية دينية لخليفته، ولما يتملك عين ماضي يكون له الحق في تعيين القادة والكبراء. الأمير كتب للخليفة التجاني أنه سيزوره باستمرار الغرض من ذلك أن يخرج التجاني من القصر ويتولى هو إدارته، ويأتي هو و جنده، يدخل ويخرج متى يشاء، التجاني رفض العرض واعتبره اهانة له، وطلب منه أن يتوب ويعود عن أمره، هذا الموقف أغضب الأمير وقرر أن يسقط التجاني وينزله من منزلته، زحف إلى قصر عين ماضي ليحاصرها، أخذ معه 2 من مدافع الميدان 2 من مدافع الجبال 7000 مقاتل، منها 2000 مقاتل نظامي.

لما أحدث الأمير هذا الحدث العجيب، نهضت قبائل الأرباع وقصور الأغواط، لتدافع عن أهل عين ماضي في هذا الوقت، استطاع خليفة الأمير أن يحدث انقساما داخل المدينة، وكانت الحرب الداخلية وشيكة الوقوع. أحمد بن سالم الهارب في واد ميزاب ليرفع الحرج عن بني لغواط، أرسل أخوه يحيى ليساند أهل عين ماضي، ذهب يحيى ومعه 100 مقاتل، قوة الأمير كانت ظاهرة، أحكم حصار عين ماضي، مدفعية الأمير لم تفلح رغم القصف المتواصل، بالكاد فتحت فتحة في الأسوار لا تفي بالغرض، ولما عجز حفر خنادق تحت الأرض ليلغم الأسوار بالمتفجرات، هذا العمل غير المسبوق أحدث الخسائر الكبيرة لدى المدافعين والمهاجمين، ثلاثة أشهر لم تصمت المدفعية، ولم يتوقف القتال. لما أخفق الأمير وانهزم، استبدل الفعل العسكري بالفعل السياسي، وتم التوافق على حل سياسي جاء هكذا: أحمد بين سالم قائد الأغواط، أخوه يحيى يترك قصر عين ماضي، الحاج العربي يبقى خليفة الأمير يُشاور ويسمع لرأيه. التجاني يدفع مبلغا ماليا قدره 11000 بوجو، لما تتحقق هذه الشروط الأمير ينسحب، تم تطبيق الشروط إلا الأخير، وبالتالي عاود الأمير حصار عين ماضي، بعدما علم أن الخليفة التجاني في وضع ضعيف، ما لم يحسب الأمير حسابه هو صمود أهل عين ماضي، بشكل لا يصدق وتحول الحصار إلى ملحمة دفاع عن الأرض والعرض، هذا الدفاع استنفد قوة الأهالي، السبب انتهاء وسائل وأدوات الدفاع من أجل ذلك، وفي ملحمة فريدة صمد الأهالي، ولم يتركوا قصرهم للأمير. الخليفة التجاني ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وهو يشاهد أهل القصر يبذلون ما

تبقى من رمق قليل، أراد الأمير أن يحسم المعركة لصالحه، وبدأ يشعر أن حسم المعركة غير واقع أبدا، وبدأ يناور ليخرج نفسه من المأزق. خرج على قادته وقال لهم إنه لا يريد أن يحنف في قسمه الذي أقسم فيه، والنذر الذي نذره على نفسه، أن يصلي في مسجد عين ماضي، هي خدعة أراد منها أن تفتح له الأبواب، ليقتحم القصر وحتى يصدقه الناس قال: ما أنهي صلاتي حتى أرفع الحصار عن عين ماضي. التجاني وافق ولكن بشرط أن يدخل الأمير القصر، ويصلي في مسجده وحيدا، الأمير رفض الشرط وأبقى على الحصار. ما حل الشهر الثامن والأمير لم يحسم المعركة، عرض مقترحا على التجاني جاء هكذا: التجاني يترك قصر عين ماضي، يدخل الأمير القصر ويصلي في المسجد، لما ينهي الأمير صلاته ينسحب ويدخل التجاني للقصر الذي تركه، ما يدخل التجاني عين ماضي، الأمير ينسحب إلى معسكره في سيدي بوزيد، تبعد عن عين ماضي بمسافة 77,2485 كيلومتر شمالا، وحتى يستطيع التجاني الخروج الأمير يمده بخمسمائة من الجمال ليحمل متاعه، واشترط الأمير من التجاني، أن يترك ولده رهينة لديه حتى يعيد الجمال ويستطيع التجاني، أن يذهب ناحية بوسمغون إن شاء وأحب. لما شاهد التجاني الأمير عبد القادر في سيدي بوزيد، ورأى أن بحوزته الجمال التي وعده بها الأمير، تأخر وبقي في القصر ولم يستطع أن ينهي كل حاجاته ومع ذلك وفى بعهده وترك هو وعائلته القصر، لما خرج التجاني قرر الأمير هو كذلك أن يترك القصر وبعود من حيث أتى، وبعد تسعة أشهر من الحصار أمر الأمير جنده برفع الحصار، وقبل ذلك أمر وهو غاضب بهد الجدران والمنازل المعروفة، ما ترك إلا بيت التجاني الذي سكنه مدة دخوله القصر هذا الرفع المفاجئ للحصار والذي لا معنى له، برره الأمير لقادته وجنوده أن هناك مسائل أهم هي الآن في التل تنتظره.

الخليفة التجاني لم يعد لقصر عين ماضي، إلا بعد هزيمة عبد الباقي خليفة الأمير الجديد في الأغواط، وبدأ معركة جديدة مع خليفة الأمير الحاج العربي الذي عينه مجددا، بعد ذلك عادت الأمور لطبيعتها في قصر عين ماضي، وعاد الخليفة التجاني ليمارس وظائفه الاعتيادية، ويعيد الثقة والاحترام للطريقة، وأول ما قام به رقع الجدران، وإعادة بناء الأسوار. لما زرت عين ماضي رأيت أن الأعمال تقترب من نهايتها، وبعد ذلك أعلن الخليفة التجاني الطاعة لفرنسا كما فعل أحمد بن سلم، لم يكن الخليفة التجاني هو الوحيد بل كل الكبراء والوجهاء في المناطق القريبة، لم يكن لهم بد من إعلان الطاعة والخضوع للقوانين الفرنسية.

أنا أتكلم عن عين ماضي لقوة مكانها وأهميتها الجغرافية، القصر مرتفع فوق تلة هي في سهل وبالقرب من منحدر انحداره بسيط، القصر يتغذى بواسطة عين ماء جارية لا تنضب، المشكلة أن تدفق الماء هذا يمكن قطعه عن القصر، لأنها منفصلة عنه من أجل ذلك، تجد في القصر بئر يزود الناس بالماء في حالات الضرورة. اضافة للبئر هناك خزان ماء كبير في بيت الخليفة التجاني، بني على شكل قلعة حصينة تحفظ الماء، الأسوار المرتفعة شيدت فيها أماكن تحمل قطع المدفعية، التحصينات تتشكل كما يلي: أولا: جدران البساتين رفعت باللّبن هي جدران طينية، رفعت فوقها أبراج تمتد على مسافة 300 متر تحيط بالساحة. ثانيا: الجدران التي تحيط بالساحة هي سميكة وقوية وصلدة بنيت بإتقان، عرضها في الأسفل متران وارتفاعها بين 10 و 12 مترا، باستثناء الجزء الجنوب الشرقي الذي لم تنته به الأعمال بعد، هذا المكان الارتفاع لا يزيد على 5 أمتار ولا توجد خنادق، الأسوار الواقية محاطة خارجيا بجدران متوازية، تُشكل السياج الداخلي للبساتين، بين الجدارين يوجد بينهما ممر ضيق، جدران الحماية منتظمة داخليا بطرق شتى. أماكن البيوت تتداخل مع بعضها البعض في أماكن أخرى، تجد جدران دون فتحات ودون مواقع رمي، بين المواقع توجد فراغات تجدها أمكنة ممتلئة بالتربة هي نفس التربة، التي تشكل السطح، ترصف كمواقع للحماية. هذه المواقع الترابية ترتفع من محيط الجدر حتى تصل المركز، لتدخل الساحة تحتاج إلى مدخلين كلاهما يقودك ناحية بيت التجاني، البيت بناء شامخ وقوي، الأبواب مطعمة بالحديد الأبيض هي تطل على ساحة مزينة بأبواب أخرى، منها تدخل القصر، أحياء القصر ضيقة، البيوت متلاصقة وترتفع ناحية وسط القصر الأراضي الممتدة، هي كذلك تساير البيوت في الارتفاع، هذه الأحياء تهيمن على البساتين الممتدة من بعيد يمكنك رؤيتها بواسطة فتحات الجدران وهي كثيرة.

يعتقد العرب أن هذه المباني حصينة، ونحن نعتقد غير ذلك، لأننا لا حظنا العيوب الكثيرة في التحصينات، ويمكن أن نعددها كالآتي: أولا: الارتفاعات المهيمنة هي نفسها يمكن أن تكون وسيلة وأداة لتحطيم الجدران الأقل منها ارتفاعا، العيب أنه لا يوجد تجانس في الارتفاعات. ثانيا: جدران البساتين تعطيك القدرة على الحركة ناحية الأسوار وتمنحك امكانية المناورة والحركة في حيز مساحته 2 متر، وتستطيع أن تنتقل بين جدران البساتين والأسوار بحرية وفي حماية مكفولة. القوة المهاجمة تصل الأسوار وجدران البساتين، تحميها وهذا عيب كبير ثالثا: إذا أردنا مهاجمة القصر الفراغات

والمساحات الشاغرة والحيز الشاغر بين الأسوار، يمكننا من خوض معركة الهجوم دون خسائر تذكر رابعا: نقطة الضعف القاتلة هو الحيز الموجود ناحية الجنوب الشرقي، أين الجدران لا ترتفع عن الأرض إلا بخمسة أمتار خامسا: هذا الحيز الذي يقل فيه ارتفاع الجدران بالقرب منه ارتفاع أرضي، يمكن تعديله وجعله موقعا جيدا للمدفعية. سادسا: إذا أردنا الهجوم وإذا أردنا زرع المتفجرات، وكما ذكرنا حالة الجدران والأسوار، تكون المهمة سهلة جدا، نستطيع أن ننتقل من مكان لآخر مع توفر الحماية، ونستطيع كذلك الحفر وغرس المتفجرات، ونستطيع حفر خنادق أرضية موصلة، كل هذا متاح أقول أن هذا العمل إذا أردنا القيام به، سيتم بأمان وسهولة وراحة كاملة[1].

إن أردنا أن نهاجم عين ماضي، نحن نمتلك من المعلومات ما يكفينا، ومن أنفس المعلومات المكان الذي رأيته مناسبا للمدفعية، سيعطينا قدرة هائلة على قصف الجزء الجنوب الشرقي للقصر، وهو سيكون المكان الأول الذي سنحتله إن أردنا الهجوم. لنحسم معركتنا المفترضة، يجب أن نحتل البساتين، ونصل إلى الجدران التي توصلنا ناحية الأسوار، وكما قلنا يجب أن نحرص على استغلال الفراغات. لما نضع قطعة المدفعية ونحتل البساتين ونحكم السيطرة على الفراغات، يكون الهجوم والاستيلاء على القصر ممكنا، وحتى نحسم المعركة ونحوز المباني ونفتكها من أهلها، هذا يحتاج بعثة عسكرية خاصة، تحمل معها قطعتان مدفعية طراز 12 وقطعتان لمدفعية الجبال عيار 8 ونحتاج للبارود المستعمل في المناجم، لغرسه وتفجير الأسوار، حتى أن حركة المعدات تكون ممكنة، لما نعتمد المدفعية طراز 12 ونوجهها ناحية الفتحات، وخاصة عند الأجنحة نتمكن من ازالة البيوت المجاورة للفتحات. نستطيع أن سدد المقذوفات مباشرة ناحية بيت التجاني، والمساكن المجاورة هي للأعيان والكبراء، سنغرس المتفجرات في الأسوار ونفجرها، لما نصل لهذه المرحلة إمساك القصر سيكون لنا لقمة سائغة، لو حسبنا كل ذلك دفعة واحدة، نحن نحتاج ثمانية أيام لاقتحام القصر واحتلاله.

---

[1] ملاحظات تظهر أخطاء قاتلة في البناء والاستعداد السلطة الفرنسية تحتاج المعلومات التقنية فقط هي التي تعيق قوتها الباقي يأتيها من عتاة الماسونية يجندون الجواسيس يسمونهم الشوافين تكفلوا بحشد الناس والاستعداد لاستقبال المحتل وفتح القصور وزرع الفوضى والدعوة للثورة والتمرد على الدولة العثمانية الخلافة الشرعية.

التجاني يعرف حق المعرفة، أن هجومنا على القصر هو لا يستطيع بما يملك أن يرده، وما يدل على ذلك رغم مخاوفه، لم يعد العدة والعدد للمواجهة. الظن أنه سيفر لما يرانا نحط معسكرنا قرب قصره كانت تأتينا المخاوف، لما نأمر عشرات من ضباطنا دخول القصر مع العلم أننا لما دخلنا قصر عين ماضي، أدخلنا القليل من قوة المطاردة وقوة القومية هؤلاء دخلوا، وقوة تابعة للخليفة التجاني تعدادها 200 تنظر إليهم ولا تحرك ساكنا. ذكرت كيف أن المقدم سانت أرنولد Saint-Arnaud لما دخل القصر لقي الترحاب، وأن الأهالي قبلوا الاستسلام والخضوع لفرنسا، الأهالي ذاقوا وبال الحروب السابقة، وعلموا أنها خيانة في حقهم، إلا أن القادة والكبراء لا يشاطرونهم الرأي، هذه حقيقة نحن نعرفها، لذلك طلبت من المقدم إذا أراد أن يدخل القصر، لا يدخل معه الفرسان العرب ويتركهم خارجا، لو شاهدهم الأهالي يدخلون القصر من الممكن أن يردوهم، وبالتالي يمتنعوا عن التسليم والخضوع، هذا الرأي حقق غاية البعثة، ومنعها أن لا تصطدم مع الأهالي، هذا القبول من قبل الخليفة والأهالي، جعل شرف الخليفة متعلق بنا نحن، لو نغدر هذا سيسقطنا، لأن عادات العرب تلزم المتعهد، أن يفي بوعده، ونحن الآن في هذه الظروف لا نفكر في الغدر، أو التراجع عن عهودنا ومواثيقنا. إذا قررنا في لحظة حاسمة ولمقتضيات عاجلة أن نهاجم الخليفة التجاني، لنا القدرة الكاملة على الهجوم والحسم، هذا فعل نحن نعتز ونفتخر به، لأن جنودنا الشجعان سينجحون حتما لأن الكتائب الأربعة الحاضرة، سعيها للشرف والعز وهي تنتظر ساعة الحسم، لتحسم معركة عجز عنها عبد القادر، بقي يحاصر القصر لثمانية أشهر، ورجع خائبا مع العلم، أن تعداد قوته العسكرية أكبر من قوتنا. انهزم لأنه فاقد للإيمان، لا يحسن فنون الحرب، غادر لا عهد له من أجل ذلك، ترك عين ماضي والأغواط، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. هذا هو السبب الذي جعل الخليفة التجاني لا يثق فيه، ما يشد الانتباه وهو المهم هي الثقة التي وجدها هذا الولي الصالح في النصارى، هي إشارة سيلتقطها الناس ويعرفوا معانيها، هم يجهلون المواطنة وحب الدولة هي بحق وشائج وصلات ستحكم العلاقة بيننا وبينهم.

الظاهر أن الأمير عبد القادر حتى يحكم الأغواط ومناطقها، استرشد بهذه الأفكار: هناك أربع قوى كان على الأمير أن يخضعها، ليحكم سيطرته، قوته لا تستطيع أن تواجهها مجتمعة، لذلك رتبها حسب الأولويات، وجاء الترتيب هكذا: أولا: أحمد بن سالم رجل قوي متمرس له قدرة، وقوة في الحكم سليل

عائلة حكمت وطال حكمها ثانيا: خليفة التجاني ولي وشريف، والده من الأولياء مؤسس طريقة صوفية قوية، عائلة الخليفة معروفة في مشارق الأرض ومغاربها، لا يستطيع الأمير أن ينافسه أو يكون ندا له ثالثا: عين ماضي مكان له شرف وقيمة، ومن حازه يمتلك قيمته وشرفه، قصر يعرفه أهل الصحراء، وباي وهران في زمانه ما استطاع حيازته. رابعا: الأغواط وما أدراك ما الأغواط الثروة، وأعداد فرسانها وقوتهم وقدرتهم على حسم المعارك الكبرى، أسوارها العالية الحصينة، نفوذها العظيم في الصحراء، أرواحهم المتقدة للحروب والنزال. لما يغضبوا يعجز بايات الترك، ولا يدخلوا مدينتهم، جاء الأمير ليقتل نفوس بني لغواط وأراد أن يخضعهم لسلطة تشبهه، فأمر عليهم الحاج العربي حفيد الحاج عيسى الولي وأراد أن يأتي ويخضع الخليفة التجاني، ليصنع حلف أولياء الله لحرب الأغواط وأهلها ويطرد عدوه أحمد بن سالم، وكبراء المدينة وأعيانها، وبدأ ينفذ مشروعه وبدأه بحصار عين ماضي، إلا أن الرياح قد تجري بما لا تشتهي السفن. ثمانية أشهر من الحصار لم تكفيه لما استنفد وسائله العسكرية والسياسية ولم يحقق أمنيته، غضب وهدّ أسوار عين ماضي وجرف بساتينها، واقتلع أشجارها، نعم التجاني قل وزنه، أما أحمد بن سالم زاد شأنه، ولما تحالف التجاني مع أحمد بن سالم عزل الأمير الحاج العربي، واستخلف مكانه عبد الباقي لأنه رجل ثقة، ولأنه من التل فلن يتردد، وسيقوم بأدواره كاملة في اخضاع المدينة وأهلها، وأهم مهمة كلف بها هي القضاء على أحد بن سالم وكبراء المدينة وما ينتهي من ذلك يحطم المدينة، ويتركها قاعا صفصفا. أراد من عبد الباقي أن يجمع بين المهمتين رغم استحالة التطبيق، لو نجح الأمير في مهمته هذه هو لن يترك عبد الباقي خليفة له هذا فعل بغيض، سيعوضه بالحاج العربي، لكي يعود ويستكمل مشروعه الأول وخلاصته، أن يتخلص من أحمد بن سالم وكبراء المدينة، ثم هد وتحطيم الأغواط ثم يحتل عين ماضي ويطرد الخليفة التجاني، ويطلب من الحاج العربي، أن يمسك عين ماضي هكذا يبسط الأمير نفوذه الديني في التل والصحراء، هذا المشروع الديني هو حلم راود الأمير، إلا أن أدوات تنفيذه لم يمتلكها الأمير، وبالتالي لم يحصل التجانس بين الحلم والواقع. حلم مملكة أولياء الله الصالحين دفنها بني لغواط، وتحولت من حلم جميل إلى كابوس يقض مضجع الأمير، من قاسم الأمير الحلم منذ الزمن القديم المقطع الأول من الحلم تحقق، لما أُ سِر أحمد بن سالم، إلا أن ضجة ورجة بني لغواط هزمت عبد الباقي وأقبرت مشروع الأمير إلى أبد الآبدين. طرد عبد الباقي مهزوما ذليلا، أثلج صدر التجاني وأعاد له الأمل، وسمع الناس في التل والصحراء، ما وقع للأمير، فعلموا فعله وتبينوا كيده. لما غنم بني لغواط قطعة

المدفعية هي علامة علمها الناس وفككوا رموزها الأمير بعد يومه هذا رُفع خوفه من قلوب الأصدقاء والأعداء، وحتى الفرنسيين وضعوه في حجمه الطبيعي، التحدي الذي واجهه الأمير كان عودة الحاج العربي لحكم الأغواط كان يعرف أن قوة الحاج العربي ضعيفة، وهي بالكاد تذكر، وأن أي فعل يقوم به هو انتحار لا محالة، بدأ نفوذ التجاني وحليفه أحمد بن سالم يقوى ويرتفع الأمير خسر معاركه ضد فرنسا. محاولة اعادة الحاج العربي لم تنجح، وصل الأمير إلى اليقين وهو أن خوض حربا ثانية ضد الأغواط، ستفقده ما تبقى من هيبة عند أنصاره وخصومه، ما قام به الأمير في عين ماضي والأغواط ورث الحقد والانتقام، وزرع الفتنة داخل القصر والقبيلة الواحدة.

مشروع الأمير عبد القادر خدم فرنسا، وجعلنا المنقذ المنتظر حتى أن قافلة تعداد قوتها 4000 من الرجال سرحت ومرحت في المناطق، واستقبلها الناس بالود وتسابق لها الكبراء والأعيان هربا من حروبهم الداخلية، ومن أكبرهم أحمد بن سالم، لقد أزاح الأمير عقبة كأداء هي عقبة أحمد بن سالم وذللها لنا، هذا الرجل نحن راهنا عليه، كما راهن الأمير على الحاج العربي، هذا يبشرنا بأن الأيام القادمة ستكون لنا، وأن حيازة هذه المناطق هي مسألة وقت فقط.

النظام

الخليفة أحمد بن سالم تم الاعتراف به رسميا خليفة لفرنسا في قصر الحويطة، أمام مجموعة من الضباط الفرنسيين المرافقين للبعثة مع حضور كبراء وقياد الأهالي، تمت قراءة التعيين باللغة العربية والفرنسية. لما شرعوا في القراءة والسماع، أطلقت المدفعية طلقة ليسمع من لم يحضر الاجتماع، وتم تعيين يحيى أخ الخليفة ليتولى منصب أغا الأغواط وتم تعيين جديد الأغا السابق للأرباع ليبقى في منصبه.

القصور التابعة للأغواط تخضع لنظام الجماعة التي تمثل كل الأطياف، التي تتعايش داخل القصر الواحد، لما قدمنا حافظنا على النظام المعمول به، ولم نغير أي شيء، هناك قصران لهما أهمية خاصة هما قصر الحيران وقصر تاجموت من أجل ذلك، تم تعيين حاكم لهذين القصرين.

قبائل الأرباع ينقسمون إلى ثلاث فرق هم: أولاد صالح و المعامرة و الحجاج[1] هؤلاء انقسموا إلى شراقة وغرابة، هذا الانقسام يستند لانتشار هؤلاء شرق وغرب مدينة الأغواط، الشراقة والغرابة بين الحين والآخر يدخلون في حروب داخلية. سنة 1843 ميلادية الشراقة ذهبوا كالعادة الموسمية ناحية التل في مناطق التيتري في غيابهم، تم تعيين ثلاث قياد للغرابة، هؤلاء حضروا هذه السنة والتقيناهم، لما كنا نجول مناطق أولاد نايل، وطلبوا أن تكون لهم إدارة تنظمهم كما هو واقع عند الغرابة، وطلبوا أكثر من ذلك أن لن يحكموا من قبل أعدائهم الغرابة. بعد استشارة الخليفة أحمد بن سالم أشار بالعودة للوضع الأول، قبل ظهور الشراقة والغرابة، وأن يعاد تنظيم قبائل الأرباع مع تعيين ستة قياد أربعة للأرباع: أولاد صالح و المعامرة و الحجاج و رحمان يضاف إثنان هما: أولاد عطا الله لهم قايد، الحرازلية وسعيد عتبة لهم قايد.

بني ميزاب أرسلوا وفدا لهم لمدينة الأغواط، للتباحث في أمورهم، إلا أن هذا لم يقع والسبب أن أحمد بن سالم وجد أن مبلغ الضريبة، الذي طلب من بني ميزاب دفعه وهو 40000 بوجو، مرتفع وطالب بتخفيضه إلى 37000 بوجو، وجدت أن قول الخليفة أحمد بن سالم محق ومعقول.

---

[1] الكاتب لم يذكر قبيلة رحمان لأنهم سكنوا قصر الحيران وهذا رأي يخالفه الكثير ومنهم بعض الكتبة الفرنسين.

أعتقد جازما أن بني ميزاب[1] لا يخضعون إلا بالقوة، دافع عنهم في العاصمة صديق لهم واقترح على القيادة الفرنسية في العاصمة، أن يكون لبني ميزاب وكلاء في العاصمة يقيمون في العاصمة. أنا رفضت هذا الاقتراح، واعتبرته غير مقبول على الاطلاق، كيف يستطيع هؤلاء من العاصمة أن يحكموا مجموعات بشرية متحركة هي في حروب داخلية وخارجية لا تتوقف، يستطيع الخليفة أحمد بن سالم، أن يكون هو الضامن لتجارتهم مع العلم، أن قسم من هذه التجارة يدار من مدينة الأغواط، وهو الوحيد من يمتلك القدرة على تنظيم علاقات بني ميزاب، هو طالب بذلك بحكم الخبرة والدراية والثقة المتبادلة.

الخليفة أحمد بن سالم طالب أن يُضاف لحكمه قصر تاجرونة، الواقع شرق الحويطة بمسافة 33,7962 كيلومتر، الظاهر أن طموحات أحمد بن سالم أكبر من ذلك، هو يريد أن يخضع قبائل المذابيح والمخاليف و الشعانبة، هذه القبائل لها علاقات ببني ميزاب مع العلم أن أولاد السايح، لا يمكن فصلهم عن هذه المنظومة، فالعلاقات بين هؤلاء متداخلة ومتشابكة، أولاد السايح ينتشرون في المناطق القريبة من تقرت، هؤلاء يعترفون أن لا تأثير لهم على قبائل الترود.

الخليفة أحمد بن سالم يجمع من القصور الخاضعة لسلطته، والقبائل ما مجموعه 37000 بوجو، دواور[2] الأرباع ومرابضهم هي منتشرة، وإذا أردت زيارتها أنت تحتاج لثمانية أيام كاملة، الحياة الاقتصادية عند هؤلاء مجتمعين لا تعتمد نظام النقد، لأن النقود هنا نادرة وعزيزة، وحتى تتجاوز الادارة الفرنسية هذه العقبة هي تقبض من الأهالي مقايضة، بدل النقد، الملابس والفضة والأبقار والجمال والتمور وما ماثله، هي بضائع نفيسة وغالية عند العرب. لو قدرنا المبلغ المتحصل عليه من البضائع التي تقبضها الادارة الفرنسية كضرائب وقدرها 33581 بوجو، هي تعادل 37302 فرنك فرنسي، إن الوقت القصير الذي

---

[1] بني ميزاب حلفاء بني الأغواط عبر التاريخ من أيام مغراوة القبيلة الأمازيغية، واجهوا الزحف الأسود للدولة الفاطمية، ووقفوا صفا مع إخوانهم أهل السنة والجماعة في حربهم ضد عقيدة الشيعة المجوس وأذنابهم.

[2] دواور لفظ عامي يقصد به التجمع السكني الصغير الذي هو أقل من القرية تجمع الخيم على شكل دائرة لما تختلط الفرق والقبائل.

مكثته في مناطق الأغواط، لا يعطيني القدرة على الاحاطة بكل شيء، هؤلاء مجتمعات متحركة لا تثبت في مكان، الغريب أن هؤلاء بقضهم وقضيضهم، يأتون كل صيف إلى التل ويسمع لهم حركة وجلبة. أقول أن الذين يدفعون مستحقات الضرائب هم فقط الذين خضعوا للسلطة الفرنسية، الباقي هو متمرد يعلن الحرب والثورة على فرنسا، لا ننكر النفوذ الذي يحاول السلطان المغربي[1] بسطه، هذا جعل قبول الفرنسيين أمرا متعسرا لدى الأهالي.

الضامن الوحيد لوجودنا هو الخليفة أحمد بن سلم، هو سيفتح كل قصوره لقواتنا العسكرية، ومن يخضع لسلطته يواجهون نفوذ الأمير عبد القادر، كلما حلوا صيفا في التل. أحمد بن سالم قتل الحاج العربي خليفة الأمير، وطرد الآخر وهو عبد اباقي، وأبعد نفسه وقومه عما كان يحصل في الغرب الجزائري من أجل ذلك، لم نكتفي بمدحه وإطرائه هو يحتاج لدعم، وحتى ندعمه ونحصن موقعه أجرينا له راتبا منتظما 18000 فرنك فرنسي، ومرتبا قدره 2500 فرنك يتحصل عليه اثنين ممن قلد برتبة أغا[2] عاملين معه ويتم تسجيل 20 من الفرسان و 200 من المشاة، يدعمون قوته إذا اقتضت الظروف وإن عمل مع قواتنا سيمنح مزايا مضافة، هذا العقد الواقع بين الخليفة والادارة الفرنسية تحكمه القاعدة العمل بمقتضى المصلحة العليا لفرنسا، إذا نجح هذا العقد، وساند الخليقة المشروع الفرنسي وجعل أهل الأغواط خادمين لمشروعنا في المنطقة، ستكون مدينة الأغواط معلم من معالم النصر ضد الأعداء في الغرب الجزائري.

تستطيع القيادة الفرنسية أن تستفيد من فضائل الخليفة أحمد بن سالم، كما يأتي:
أولا: سنخضع مناطق الجنوب ومناطق الغرب، ونمنع الناس من الثورة والتمرد.

---

[1] النفوذ الديني المقترن بنظرية الأشراف الذين يدعون الحق في السلطة كحق الهي منصوص عليه وكأن نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام أُرسل ليبني امبراطورية لأسباطه.
[2] قبل سقوط الدولة العثمانية كان النقد العالمي مرجعه الذهب لذلك تلاحظ أن قيمة بوجو أكبر من قيمة الفرنك الفرنسي هذا المبلغ لو اجتمع بني لغواط اليوم لا يمتلكون لا نصفه ولا ثلثه نتذكر بعد الاستقلال أن أقل سيدة تسكن الأغواط تضع في عنقها خيطا أسوادا ترصف عليه قطع الذهب وأضف لها الحلي الأخرى المتوارثة من جيل إلى جيل وسبحان الدايم بالدوام لا يغفل ولا ينام.

ثانيا: جلب المنافع الاقتصادية ويكون ذلك بجلب البضائع من مناطق الصحراء ناحية التل، ومن ثمة تحولها إلى تونس و المغرب.

ثالثا: هذه التغيرات ستخيف الأهالي في التل، وهذا يؤثر على سلطة الأمير عبد القادر وقد يتحول الناس عنه ويعادوه.

أعتقد أن أحمد بن سالم رجل قوي له القدرة والاستطاعة، لكي يكون الند للأمير[1] ويمكن أن يقف خصما للأمير، ويقاتله وهو يلتمس قوته الدينية من الخليفة التجاني كلاهما قاوما الأمير، قاوموه لأنه أراد أن يبسط نفوذه الديني عليهم القوة القتالية، الآن للخليفة أحمد بن سالم ما بين 1200 و 1500 مقاتل و 500 من قوة الفرسان وقطعة مدفعية.

لما نتكلم عن التجارة الداخلية الافريقية نعني بهذا الكلام ما يأتي:

1. الأغواط والقصور المحاذية لها هي مستودعات التجارة، التي تنتظم بواسطتها التبادلات بين الأرباع ومدينة تقرت، هذا من جهة من جهة ثانية، التبادلات التجارية بين بني ميزاب والتل وحركتهم الدائمة من جهة ثالثة قصور أولاد نايل، تقوم بنفس وظائف الانتاج والتبادل، وهي لا تخرج عن السياق كل هؤلاء تجارتهم لا تصل مدينة تُمْبُكْتُو.
2. قبائل لبيض سيدي الشيخ[2] الواقعة غربا هي حلقة الوصل التجارية، بين الأغواط ومناطقها وما يتبعها، وبين مدينة تُمْبُكْتُو[3] و حلقة الوصل بين قبائل لبيض سيدي الشيخ ومدينة تُمْبُكْتُو هم قبائل الشعانبة، هؤلاء هم تجار ينقلون البضائع من المغرب وينقلونها للتل ولمناطق وهران، ويحضرونها كذلك لأسواق الأغواط، ومما يحمله الشعانبة من هذه البضائع يدخلون به أسواق بني ميزاب، التبادل داخل أسواق ميزاب يتيح عرض بضائع كثيرة ومتنوعة.
3. يحمل التجار من مدينة تُمْبُكْتُو العبيد، وغبرة الذهب، والعاج، وريش النعام، والحناء وبضائع أخرى.

---

[1] قراءة الكاتب هنا خاطئة أحمد بن سالم رجل سياسة والسياسة هي فن الممكن من يكن ندا للأمير ويلغي مشروع الحلف الماسوني الصليبي ويرفع راية الجهاد هو ناصر بن شهرة قاتل تحت راية مُحَمَّد بن عبد الله قائد الجهاد الشرعي الحامل لراية الخليفة العثماني.

[2] القبائل الجنوبية الغربية هي قبائل أولاد سيدي الشيخ راجع كتبنا ناريخ تمرد أولاد سيدي الشيخ.

[3] تُمْبُكْتُو مدينة في مالي من العواصم الإسلامية في غرب أفريقيا تلقب بجوهرة الصحراء.

4. يدير بني ميزاب التجارة بين الصحراء والتل وتونس، لأن لهم علاقات وطيدة بين المناطق وشعوبها، ولأسباب أخرى منها، أنهم يقطنون بداية الصحراء ويستغلون قوافل الحج المارة على تونس، وفي كل منطقة لهم صلات وقرابة.
5. مدينة الأغواط هي حلقة وصل بين تونس والمغرب، لأنها منذ القدم ملتقى للقوافل، تمر بها قوافل الحجاج كل سنة.
6. قبائل الشعانبة كل شتاء يمتطون المهارى، يتعاونون مع قبائل هم يعرفونها، يغزون مناطق الجنوب لإحضار العبيد السود.
7. القبائل التي تأتي التل فصل الصيف، نحن نقدر عدد جمالها بين 15000 و 20000 هي التي تحمل طعام الصحراء للتل، وتعود محملة بالحبوب، هذه القوافل تصل أسواق بني ميزاب ومدينة تقرت.
8. أثمان البضائع غير مستقرة، قد يتضاعف الثمن وأحيانا يصل أربعة أضعاف، لتباعد الحركة بين الشرق والغرب. صفوة القول أن بني ميزاب يحضرون البضائع لأسواقهم، تجار قبائل الأرباع يتكفلون بتوصيلها للأسواق البعيدة والقريبة، ويحوزون نصف الربح.

نضع هذا الجدول المدون بين سنتي 1843 و 1844 ميلادية يوضع أثمان البضائع في مختلف أسواق الصحراء الكبيرة:

جدول أثمان البضائع بين سنتي 1843 و 1844 ميلادية

السنة	العملة بوجو عثماني			البضائع	
	التل	بني ميزاب	تقرت	وحدة القياس	البضائع
1843	20	5	4	الكيس	التمور
1843	6	3	3	الحايك	الثياب
1843	8	21	12	الصاع	الشعير
1843	12	36	18	المد	القمح
1843	9	7	18	المكتل	غبرة الذهب
1843	2	1	18	زوج	الأحذية
1844	20	14	3	الكيس	التمور
1844	9	4.5	4	الحايك	الثياب
1844	4	12	3	الصاع	الشعير
1844	8	18	16	المد	القمح
1844	300	100	16	أمة سوداء جميلة	العبيد
1844	25	8	10	محمل	ريش النعام
1844	4	3	10	الجنيه	البارود

إذا كانت مدينة الأغواط في غاية النظام الاقتصادي، وهي تشرف على حركة تبادل البضائع التي يقوم بها بني ميزاب، وكذلك أولاد سيدي الشيخ، هنا نصل إلى الملاحظة التالية، وهي أن الأغواط أهم المناطق الاقتصادية، التي تقود ناحية الجزائر وهي مجتمعة تنظم حركة التبادل في الصحراء الكبرى، نحن كقيادة وافدة، نجد أنه من المطالب الأولى،

أن نعيد النظام الاقتصادي لمدينة الأغواط:

1. نبني مركزا عسكريا و سياسيا و تجاريا.
2. لما نمتلك الأغواط نمتلك المركز، وبالتالي نخضع علاقات التبادل التجارية بين شرق وغرب الجزائر لسلطتنا.
3. لما نحكم السيطرة على الأغواط نضع المجاميع البشرية المتمردة، وهي القبائل الجنوبية الغربية نخضعها لسلطة الخليفة القوي أحمد بن سالم، ونقوم بضمها لمقاطعة وهران.
4. ما نراه الآن أن التواصل بين الأغواط والعاصمة صعب وغير مضمون، من أجل ذلك أقترح ضم الأغواط لمقاطعة المدية، وأن تخضع لقيادتها السياسية والعسكرية، ونضيف لها على الأقل الجزء الشرقي من جبل العمور.

وضعية خليفة الأغواط لا بد أن تستجيب لطموحاتنا في المنطقة، ونحقق الغاية الكبرى وهي القدرة على التحرك، والمناورة في المناطق الصحراوية، إذا أردنا أن ننقل الحركة التجارية للداخل ونحرر العاصمة، يجب أن نمدد حكم الخليفة ليشمل بني ميزاب والأربع أولاد سيدي الشيخ والمناطق الشرقية من جبل العمور. هكذا سنجعل أحمد بن سالم خصم الأمير لا محالة، هذه الوظيفة لا تتحقق إلا إذا رفعنا قوة الخليفة، ونمكنه من الحركة العسكرية والتجارية، أنا أقترح أن نضع مركز مراقبة بين بوغار والأغواط، وأن يكون في منطقة السواقي، الواقعة جنوب بوغار بمسافة 96,5606 كيلومتر، هذا المكان هو من أجمل أماكن الصحراء، والناس يبحثون عنه ويقصدونه، توجد به مياه وفيرة تتدفق من أماكن عالية وهي توفر الري لمناطق واسعة مجاورة، تعطي قمحا وفيرا وأعلافا وبكميات كبيرة مع جودة عالية، المنطقة هنا صحية لما نبني الموقع، سنعيد بناء القصر المحطم، وسنعيد الحياة لكل المنطقة، هذا سنقوم به هنا وفي مناطق الصحراء الأخرى ولما لا نكرر التجربة في المناطق الغربية والشرقية.

لما عزمت على المغادرة كان لا يزال يتعين على القصور والقبائل دفع 3419 بوجو، هذه القيمة تمثل العشر من القيمة الكلية 33581 بوجو، تم الاتفاق على أن الخليفة يقبضها ويقوم

بتقسيمها على الرؤساء، هذا النظام نحن نعمل به في التل، وفي كل الأحوال هي كرواتب للخدمات التي يؤدونها.

ستدفع 1000 بوجو كحقوق لقمح مناطق بودرين، هذه القيمة تحسب خارج الحسابات السابقة.

نذكر أن مستحقات الأمير عبد القادر من الخليفة أحمد بن سالم لما حاصر عين ماضي ثبتها بقيمة 30000 بوجو، أضف لها القيمة التي ابتزها من عين ماضي والمقدرة 11000 بوجو، ولما عجز سكان عين ماضي عن دفعها نقدا، أخذ قيمتها برانس رجال وحايك النساء والحلي الفضية وما ماثل ذلك.

لما كان العهد التركي كانت الضرائب تنتظم هكذا:

1. سكان القصور يدفعون ضريبة سنوية زهيدة بالكاد تذكر
2. الشعوب التي تنتقل من الصحراء إلى التل سنويا، تدفع ضريبة مقدرة بين 30000 و 60000 بوجو.
3. هناك ضرائب خاصة تدفع لما تنقل الأفواج القتالية للمناطق، وتسمى ضريبة الدفة ويقصد بها ضريبة الضيافة، والمقتضيات الطارئة العاجلة، وهذا هو عرف معمول به هنا لما وصلنا نحن عوملنا بهذا العرف، ومنحنا حق الضيافة وقُدم لنا ما قيمته 33581 بوجو، إلا أننا لا نستطيع استعماله بحكم أننا ندخله في الضرائب السنوية المستحقة، توافقت مع الخليفة أحمد بن سالم، أن يتم دقع باقي المستحقات هكذا:

القصور: تاجموت 400 بوجو، الحويطة 300 بوجو، العسافية 300 بوجو، قصر الحيران 500 بوجو، الأغواط 1000 بوجو، عين ماضي 500 بوجو.

قبائل الأرباع: المعامرة 2000 بوجو، أولاد صالح 2000 بوجو، الحجاج 1200 بوجو.

أولاد سيدي عطا الله 1000 بوجو، الحرازلية 1500 بوجو، سعيد عتبة 1000 بوجو.

مشكلة طاقم الجمال

ما وصلت المدية حتى شرعت في تجهيز فوج قتالي يمتطي البغال، أخذت الفكرة من العمل الذي قام به العقيد يوسف1، لا أنكر أنني ذهلت وتعجبت كيف يمكن لبعثة تتجه ناحية الصحراء، تستعين على رحلتها بالبغال، أنا أعرف أن البغل الواحد يستهلك يوميا من الغذاء 4 كيلوغرام من الشعير وبعملية بسيطة، نحن نحتاج لكل بغل أيام الرحلة ما وزنه 120 كيلوغرام، هذا يعني أننا كل ما نحمله سيكون مؤونة البغال فقط. فكرت أن اعتماد الجمال في الحركة والتنقل أفضل، الجمل ما يصل الصحراء يكفي نفسه بنفسه يكفيه ما يجده من عشب في طريقه، وهو حيوان صبور يصبر على الماء أيام معدودات، أضف لذلك أن سعر البغل مرتفع، ثمن الجمل هو ربعه فقط، أضف لذلك أن البغل حيوان نادر من الصعب العثور عليه على خلاف الجمال، هي تملأ الآفاق كثرة ووفرة من أجل ذلك قررت أن أجعل الجمال هي وسيلتي في الترحل والتنقل. أنا لا أبحث عنها هي موجودة ومتوفرة عند قوة المشاة الفرنسية النظامية، المشكلة فقط هي أننا نجهل طبيعة التعامل معها، نحن لا نعرف ما هي عادات هذا الحيوان، ولا طريقة حياته، ولا نحسن تنظيفه ونجهل كذلك كيف ننزله وكيف نرفعه، وكيف نحمل الأحمال عليه. قبل أن نشرع في الرحلة قمنا بمحاولات لنجرب، ونختبر هذا الحيوان، هذا العمل لم يكن باليسير السهل لأننا نتكبد خسائر إضافية تنضاف لتكاليف النقل على كل حال، تم حل أهم معضلة وهي حمل الأمتعة بتسخير الجمال، أما ما تبقى فلكل حادث حديث.

ما بدأت الرحلة كان طاقم الجمالة يتشكل من 277 جمل هي ملك للدولة الفرنسية يقودها جنود من قوة المشاة، النتائج السريعة التي تحصلنا عليها هي كالآتي:

---

[1] هو المعروف بالجنرال يوسف يهودي يتقن العربية وملم بالفكر الصوفي مهندس احتلال الجزائر العاصمة وكذلك مهندس اقتحام مدينة الأغواط استطاع بثقافته الراسخة أن يكمل المشروع الصليبي الماسوني الذي عمل عليه قادة الماسونية داخل وخارج الجزائر استطاع مع حلفائه في الداخل أن يجند القبائل ويفتح القصور للفرنسيين ويجند العوام والكبراء لخدمة مشروعه القديم الجديد راجع تاريخ بني لفواط.

1. استطعنا أن نحمل الجمال وبطرائق أحسن من العرب أنفسهم.
2. فقدنا عددا أقل مما هو مفترض فقدنا اثنين فقط.
3. كل جمل تم تسخيره للبعثة دفعنا له ما قيمته 3 فرنكات ونصف يوميا، هذا الايجار الحكومي يكلف مرة ونصف قيمة الجمل الحقيقية.
4. أثناء تحرك قوة المشاة في حركتهم العادية، تكون حركة قافلة الجمال أبطأ منها، والسبب أن الجمال تستهلك غذاءنا أثناء حركة المشي، لذلك أثناء المسير هي لا تتوقف، لما تتوقف القوة أو الفوج القتالي، هكذا يتم تدارك التأخر الذي تحدثه أثناء المسير، ولما نكون في عجلة نسارع الجمال ونمنعها من الأكل أثناء المسير، وبالتالي نختزل الوقت ونجانس بين حركتها وحركة القوة المتحركة.
5. الطاقم المرافق للبعثة هو محل ثقة، وهو يتكفل بكل الأعمال، وله القدرة على تجاوز كل العوائق، إن وجدت وحدثت.
6. حتى لا نتأخر كل صباح يكفي رجلا واحد ليحضر الجمال، ويجعلها مستعدة للتحرك ويستطيع رجل واحد، أن يتكفل بقيادة 12 جملا دفعة واحدة، مع العلم أن كل فرد في المجموعة يساهم في قيادة وتوجيه طاقم الجمال بطريقة أو أخرى، ونحن نستغل كل فرد متحرر داخل البعثة، وتعتبره قيمة لا تقدر بثمن.

7. وجدنا أن ركوب الجمال أسهل مما توقعنا، بل نستطيع أن نثبت أنفسنا دون عناء، وحتى الجندي المرهق والمريض، يجد ضالته في الركوب، الجمال تستطيع حمل 60 جنديا دفعة واحدة مع العلم أنها مخصصة أصلا لحمل المتاع والمؤن.

8. الجميل أن من يركب الجمل لا يأتيه الغثيان، ولا يشعر بدوار البحر.

المهارى

سمعت الكثير عن المهارى[1] وكيف يتناقل أخبارها أهل الصحراء، يقولون أن المهارى تقطع في يوم واحد مسافة 241,402 كيلومتر، ومنهم من يقول أنها تقطع مسافة 289,682 كيلومتر، ومنهم من يذهب بعيدا ويقول أنها تقطع في اليوم الواحد مسافة 482,803 كيلومتر، هذا كلام سمعته وشد انتباهي. أريد أن أعرف هذا الحيوان الذي يمتلك هذه القدرة الفائقة، وإن صح القول سيكون نافعا ومجديا وسريعا في نقل البريد اليومي، تواصلنا مع قياد الأرباع وأولاد نايل، أرسلوا لنا ثلاثة هي غنائم غنما الأرباع وأولاد نايل هذا الشتاء، سلبوا 17 من المهارى لما هاجموا دوار. المهارى حيوان عادي غير منفصل عن فصيلة الجمال، هو بالنسبة للجمال كفرس السباق يحتفظ بميزات خاصة سنام المهارى هي صغيرة مقارنة مع باقي الجمال، وتقل فيها الدهون، حيويته وقوته هي أكثر، المهارى إذا مشى هرول وله القدرة على الهرولة مدة يوم كامل، هرولته ومشيته لا تختلف كثيرا عن هرولة ومشية الحصان الجيد، المهارى يضطرب لما تكون الطرق والمسالك غير ميسرة.

أولاد نايل يشترون المهارى من قبائل الشعانبة، ويضعون له اللجام ويوضع له السرج أمام السنام فوق الكاهل، الراكب يجلس وساقيه تسترخيان على رقبة الحيوان.

[1] أرفقنا بتقرير البعثة صورتان للمهارى للتعرف على الحيوان المؤلف.

ملخص عن البعثة

نلخص ما حدث:

البعثة قامت بوظيفتها دون أن تفقد رجلا واحدا، ولم تفقد حصانا واحدا، ولا بغلا واحدا ومن اليوم الذي انطلقت من الحامية، لم تعرف أمراضا تذكر على مسافة قدرها 273,588 كيلومتر، واحتاجت إلى 32 يوما، البعثة واجهت البرد والمطر وشدة الحر أضف لذلك الرمال والعطش، مما واجهنا كذلك رداءة المياه، ما مرت البعثة في منطقة إلا وتركت الأثر الحسن في النفوس. ما شاهده الأهالي الانضباط وحسن السلوك، والتقيد بالأوامر، وصلنا بريد العاصمة الجزائرية في وقته وأوانه، لقد وصل الرجال والحيوانات لمدينة تيارت وهم في أحسن الأحوال.

المناطق التي وصلنا لها كانت تخضع للقانون والنظام الادري العامل، وخير دليل على ذلك أننا كنا نحصل الضرائب في مدة لا تزيد على ثمانية أيام، رغم حرب المغرب التي نشهد وقائعها في أيامنا هذه.

العمل الذي قمنا به ساهم في ترسيخ وجودنا، وأعطانا قدرة على التحكم في البلد بشكل جيد، الهدف من ذهابنا ناحية الأغواط هو تأسيس مركز له فعل تجاري، يجذب إليه التجارة الداخلية للجزائر، ويمكن الاقتصاد من التمدد ناحية الوسط والصحراء، لو تحقق هذا الفعل نستطيع أن نقاوم نفوذ الأمير والقبائل المحاذية لسلطان المغرب.

الخليفة أحمد بن سالم تعاون معنا، ولم يطلق طلقة واحدة، الشعوب التي يحكمها أحمد بن سالم أظهرت الطاعة، قبلت بالحكم الفرنسي، رغم الحرب التي أعلنها المغرب علينا، هكذا أضحى لنا مكاسب نعتز بها، أحمد بن سالم رجل قوي من أصول عريقة في المدينة، له اهتمامات كبيرة، وله قدرة فائقة على تحقيق أهدافه، صاحب كلمة إذا تكلم، وفى بكلامه ويراهن دائما على القصور التي هي تحت سلطته، الكل ينتظر من هذا الرجل أن يأتي ناحية التل، ويزيل الأضرار التي ألحقها الأمير بالناس.

أرى أنه من الضروري أن نمنحه راتبا ثابتا، وقوة عسكرية من الأهالي تسنده.

إذا قررنا وضع مركز مراقبة يتوسط بوغار والصحراء الكبرى في منطقة السواقي، وهو المكان الأمثل والأحسن، هذا الموقع سيكون هو المفضل لقبائل الصحراء، وستكون كل هذه القبائل تحت حكمه وسلطته.

طاقم الجمالة أثبت نجاحه الباهر في هذه المهمة من أجل ذلك، أشجع أن تُأمم من القبائل هي جمال جيدة، وتقوم بوظائف المواصلات بشكل جيد وممتاز.

ما لفت انتباهي وأنا أقوم بهذه الرحلة، هو أن مركز القيادة بعيد، وهذا يحدث الخوف والانزعاج لدى الفرق المقاتلة، وحتى نتجاوز هذه العقبة، يجب أن نلتزم بالعهود والمواثيق التي أبرمناها مع الأهالي، وأن تكون هناك ثقة متبادلة بين الادارة والأهالي وأن نشعرهم دائما أننا نحن هم المتفوقون. لما نرسخ هذه الثقة المتبادلة بين الادارة والأهالي هنا يمكننا إعلان الحرب على أعدائنا، نحن دائما نراهن على القبائل التي أعلنت الطاعة هكذا نصيف لقوتنا قوة الرأي والوعي العام، لما نمتلك هذه القوة قوة الرأي والتشارك في الفكر الواحدة، تأتي النتائج متتابعة، و باهرة في نفس الوقت.

لا أستطيع أن أنهي كلامي ولا أتكلم عن سعادتي من الفرق العاملة معي، الخاضعة لأوامري كلها فرق عريقة، لها خبرة واسعة في المسائل الأفريقية، أظهرت شعورها القوي وحزمها الشديد، وتعلقها بالقيم العليا للوطن فرنسا، وجدت عندهم الشعور العسكري الملزم بأداء الواجب. هؤلاء الشجعان قاوموا الأخطار وواجهوا سوء المناخ والعطش وألزموا أنفسهم بالطاعة والانضباط من أجل ذلك، نجحت البعثة وحققت أهدافها كاملة، ولم نخسر شيئا ولم نفقد من رجالنا أحدا في ذهابنا وإيابنا، هو الحزم والعزم وقوة الارادة، وجدت هذا عند كل الضباط دون استثناء، وأخص بالذكر قادة المجموعات والخدمات.

تيارت 20 جوان 1844 ميلادية

الجنرال قائد محافظة المدية ماري

نبوءات كتبت منذ 130 سنة صاحبها ولي الأغواط الحاج عيسى

هذه المقاطع مأخوذة من كتابه الآية الذي تركه

وَجْدُوا لِلْرُومْ غْدَاهُمْ مَعَ عَشَاهُمْ بِالْحْرَامْ يَبِيعْنِي فِي وَادْ الحْمَّـــــــارْ
يْنَزَهْ فِي أَبْصَارْ نِسَاهُمْ و فِي هَوَاهُمْ مَنْ عَسَاكِرْهُمْ تُقْدَى النَّارْ في الأَحْجَارْ
تَعُودْ مَزْغَنَة لِلْكُفَارْ دَارْ نَارْ تُونَسْ الْخَضْرَا لِأَهِلْ اِسْبَانِيَا مَـــــزَارْ
طُّلْ شُوفْ شْعَاعْ أَلْف عَلَامْ في الغْبَارْ قَاصِدْ مَزْغَنَة لِــــوَادْ الحْمَّارْ
يَا سَامِعْ لَفْظِي لَا تَسْتَبْطَاشْ ذا الوّعِيدْ شَافَتْ عَيْنِي بِالْمُّو الأَبْصَــــارْ
الجَزَائِرْ تَخْلَى مِنْ مُلْكِهَا الْسَعِيدْ بِالْفِرَنْسِيسْ اِلْلِي في سَاحِلْ الْبِحَــــارْ
وَأَهْلَهَا مِنْهَا يَمْسُوا وَرَاهُمْ بَعِيدْ في مَا قَضَاهْ الْبَرَارِي فِ سَابِقْ الأَقْــدَارْ
ذَا الْحَدِيثْ عَجِلْ شُوفَة عَيْنْ مَنْ عَرَفْهَمْ الرُومْ خَشْ مَزْغَنَة وَدَارْ سَــتَارْ
خَرْجُوا مِنْهَا كَانُوا هُنَا قَبَلْهُمْ مَالْكِينْ هَنَاهْ وَجْبَالْهَا كَبَـــــــــــارْ
يَا حَسْرَاهْ على غَوْلَةْ البُلْدَانْ لَكْنَاسْ أَصْنَامْهُمْ مَحْتُـــــــــــومْ
مَا يَخْلَى لِلْتُرْكْ فِيهَا نُومْ يَنْهَزْمُوا وَزَمَانْهُمْ مَهْـــــــــــــرُومْ
بْرْكَاهُمْ مِنْ ظُلُمْهُمْ وَالْشُومْ قُدْرَةْ رَبِي تَهْزَمْ المَلْمُـــــــــــــومْ
كَانَتْ مَزْغَنَة مَلَانَة بِصَنَادِيدْ الأَتْرَاكْ اِلْلِي مُلْكْهُمْ مْقبَحْ طَبْعُـــــــهُ
لُوطْ وخَمَرْ وفُسَاقْ وَأمْفَاسِيدْ حَاشَا فِيهُمْ مَنْ خْشَى الله وَطَاعَـــــــه
هَا هُوَ جَاهُمْ عَسْكَرْ لاَ يَرْحَمْ سِيدْ رَومْ الْنَصَارَى يَصُدْعُوا مَا يَنْصَدْعُـوا
يِذْلُوهُمْ وَالْهَنَا يَشْيَانْ يَرْخَسْ ذَاكْ الْجَاهْ بقْبَحْ الْقُـــــــــــومْ
يِسِيبْ حَرِيمْ الْتُرُكْ في الأَوْطَانْ يَشْمَخْ دِينْ فْرَنْسَا وَيَـــــــــدُومْ
ثِلْثْ مِيَاتْ سَنَه لمِزَغْنَه الْبَهْجَة مَمْلُوكَه لِلْتُرْكْ بِالْظُلْمْ وبِالْجُـــــــورْ
سِيرَةْ عَامْ حَدِيثْ بِهَا تْتْحَاجَى بِطَنَاخِتْهَا في الْمَدَايِنْ وَالْبِحُـــــــورْ
في غَفْلَة هِيَ و مَا فِيهَا يَرْجَى والأَقْدَارْ تْصُولْ وَيَصُولْ المَقْـــــــدُورْ
هَا هُوَ جَاهُمْ عَسْكَرْ سَخَطْ مَا يَلْيَانْ فْرَانْسِيسْ سْبَانْيه في الْبَحْرْ يَعُـــومْ
اَيْسْرُوا يَنْقَصْ الْصِبْيَانْ مَا تَسْتَاهِلْ غَوْلَة الْبُلْـــــــــــدَانْ

تعليق المترجم: قصيدة الحاج عيسى التنبؤات سلمها حفيد الحاج عيسى لماري مونج سنة 1844 ميلادية، متضمنة في كتابه الآية، أعاد نشرها مونجان في كتابه تاريخ الأغواط نقلها عن ماري مونج القصيدة الأصلية المطابقة للنص الفرنسي مطابقة حرفية نشرها الطالب بومداني مصطفى في رسالته للدكتوراه الجفر في الشعر الشعبي الجزائري جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان 2015 ـ 2016 ميلادية الصفحة 77 مع قصائد أخرى جاء في بعضها أن الشاعر يقرأ من اللوح المحفوظ:

مـَـا زِلْنَا نِتْعَاوْدُوا الأخبار يا سَايِلْنِي نَعِيدْ لَكْ قِصَـة
مَكْتُوبَة فِي اللَّوْحْ لَا تِعْبَارْ مَاذَا من الأَمْحَانْ مَدْسُوسَة
فِي زُقَةْ الأَغواط مَاذَا صَارْ تَظْهَرْ فِيهْ أَخْبَارْ مَنْحُوسَة

الرسالة محققة أشرف عليها دكاترة، منهم الصديق الدكتور عبد العليم بوفاتح عضوا مناقشا، لمن لا يعرف الفلسفة، الجفر هو من علوم الشيعة الروافض، يدعون أن من تعلمه يعرف الغيب وينسبونه كذبا وزورا لسيدنا علي، ومنهم من ينسبه لسيدنا جعفر الصادق، هذا من مباحث الفرق الكلامية من أراد التوسع، أما بناء ضريح الحاج عيسى رُفع أيام الاحتلال الفرنسي، والشاهد على ذلك يقول الطالب بومداني مصطفى الصفحة 66 : « وأما سنة وفاته فيذكر الرواة أنه توفي قبل أسبوع من مولد القطب الرباني سيدي أحمد التجاني أي في سنة 1150 هجرية الموافق لسنة 1737 ميلادية، ولم أجد من يخالف هذا التاريخ ودفن بمقبرة بني هلال أول مرة، ثم بعد قرن ونيف نقل إلى ربوة باب الربط أين يعلو ضريحه. » النيف الذي لم يحسبه الطالب هو 7 سنوات، وتكون المعادلة هكذا: 1737 سنة وفاة الحاج عيسى + 100 سنة ذكرها الطالب بومداني + 7 سنوات النيف لم يذكرها الطالب = 1844 ميلادية هي السنة التي حل فيها ماري مونج بالأغواط، هو من أمر بنبش قبر الحاج عيسى وحوله من مقبرة أولاد هلال إلى المكان الموجود فيه الآن، هذا يفسر طلب ماري مونج الذهاب إلى واد الحمار، ليحقق النبوءة ونفس الشيء فعله الجنرال يوسف لما أراد قصف الأغواط، يوم الاقتحام وضع قطعة المدفعية فوق قبر الضريح مباشرة، راجع صيف في الصحراء فرمانتان ترجمة كزواي الحاج العرابي.

الفهرس